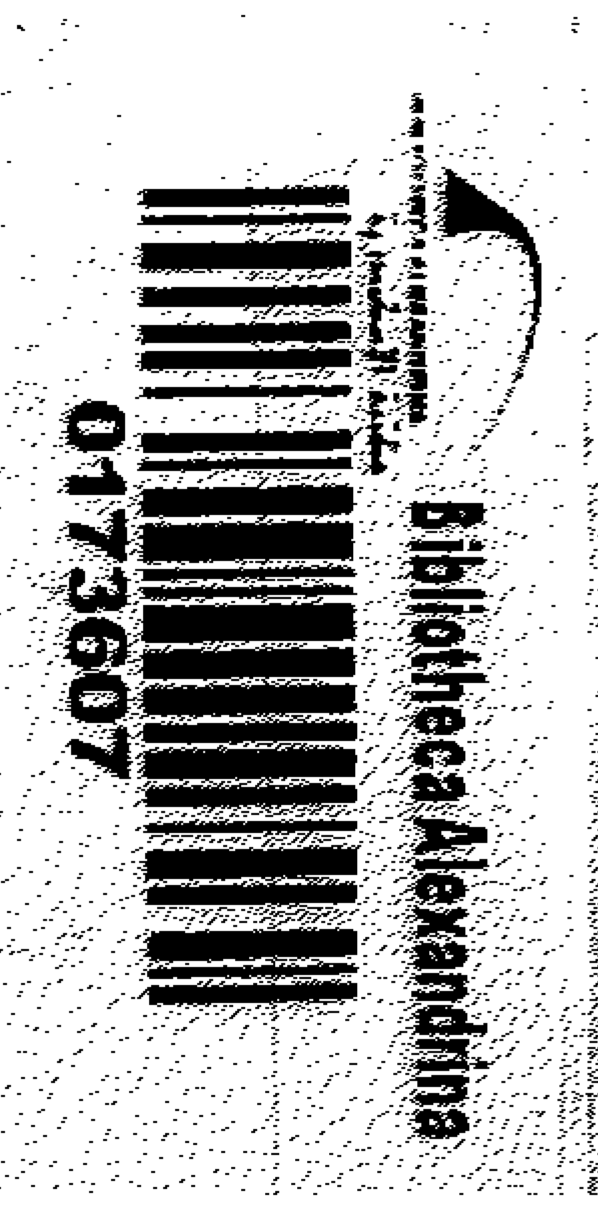
اقرأ

الدكتور محمود سلام زناتي

تعدد الزوجات

لدى الشعوب الإفريقية

دار المعارف



تعدد الزوجات
لدى الشعوب الافريقية

الدكتور محمود سلام زناتي

تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية

اقرأ ٢٤٢

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٤٢ - فبراير ١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م

تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية

تعدد الزوجات نظام مألوف لنا نحن العرب ، فقد كان أسلافنا يمارسونه قبل الإسلام وظلوا يمارسونه بعد ظهوره . فالإسلام كما نعرف لم يلغ تعدد الزوجات وإن كان أورد عليه بعض القيود . وفى مجتمعنا العربى الحديث أصبح تعدد الزوجات مثار نقاش وانقسم الناس بشأنه بين اتجاهات ثلاثة : فريق يرى فيه نظاماً فاسداً : يهدر كرامة المرأة ، يفكك روابط الأسرة ، يلحق الأذى بالمجتمع . ومن ثم يرى هذا الفريق ضرورة إلغائه إلغاء تاماً . وفريق آخر لا ينظر إليه هذه النظرة المتشائمة ، ويرى فيه نظاماً له من الأسباب ما يبرر الإبقاء عليه . وفى عرف هذا الفريق أن تعدد الزوجات إذا كان يؤدى فى بعض الحالات إلى إهدار كرامة المرأة أو الحاق الأذى بالمجتمع ، ففى الوسع تفادى هذه النتائج السيئة باتخاذ بعض الإجراءات التنظيمية . وفريق ثالث يرى أن تعدد الزوجات حتى فى صورته الراهنة ليس فيه ما يعيبه ، ومن ثم فهو ليس فى حاجة إلى تدخل لتنظيمه .

وفى اعتقادنا أنه من المفيد لنا نحن العرب وقد طرحنا موضوع تعدد الزوجات على بساط البحث أن نخرج بعض

الوقت من محيطنا العربى وأن نمد ببصرنا قليلا إلى شعوب تجاورنا منذ مئات السنين وأعنى بها الشعوب الأفريقية التى تقطن جنوب الصحراء الكبرى . فهذه الشعوب تمارس تعدد الزوجات ، ولهذا النظام لديها قواعده الخاصة وهى تمر بالنسبة له بتجربة مماثلة للتجربة التى تمر بها أمتنا العربية . ودراسة تعدد الزوجات لدى هذه الشعوب من شأنها أن تلقى ضوءاً ينير لنا الطريق نحو فهم مشكلة تعدد الزوجات لدينا فهماً واعياً ، وقد توحى بالحلول المناسبة لها.

ثم إن دراسة تعدد الزوجات لدى الشعوب الأفريقية يتيح لنا الفرصة للوقوف على وجه من وجوه حياتها الاجتماعية والقانونية ، ومن شأن ذلك أن يزيدنا معرفة بها وفهماً لها . ولا شك أننا فى الوقت الحاضر أحوج ما نكون إلى كل ما من شأنه أن يزيد معرفتنا بهذه الشعوب ويعمق فهمنا لها .

تلك هى الأسباب التى دعتنا إلى دراسة تعدد الزوجات لدى الشعوب الأفريقية ودراستنا له تتناول بحث المسائل التالية :

أولا : مدى انتشاره وممارسته .

ثانياً : الأسباب التى تدعو الرجال إليه .

ثالثاً : موقف النساء منه .

رابعاً : القواعد التى تحكمه من حيث عدد الزوجات وحق الزوجة فى الاعتراض عليه وعلاقة الزوج بزوجاته المتعددات وعلاقتهن ببعض .

خامساً : أثر الإسلام على تعدد الزوجات لدى الشعوب الأفريقية التى أسلمت .

سادساً : موقف البعثات التبشيرية المسيحية منه .

سابعاً : موقف السلطات الاستعمارية منه .

ثامناً : أثر ظروف الحياة الحديثة عليه .

أولا : مدى انتشاره وممارسته

تعدد الزوجات يعد فى الواقع أحد الملامح البارزة لنظام الزواج والأسرة لدى الشعوب الأفريقية. فنحن لا نكاد نجد شعباً منها لا تسمح تقاليده بممارسته . فعلى الرغم من اختلاف هذه الشعوب فيما بينها من حيث الجنس الذى تنتمى إليه والمرحلة الحضارية التى تمر بها فإنها تتفق فى إباحتها تعدد الزوجات .

وإذا أردنا أن نتعرف على مدى ممارسته لدى القبيلة الواحدة أو الشعب الواحد أدهشتنا أقوال بعض الملاحظين الأوربيين . فقد وصف بعض هؤلاء تعدد الزوجات لدى الشعوب التى كانت محل مشاهدتهم وصفا يبدو منه تعدد الزوجات وكأنه النظام العادى للزواج ، بل إن البعض منهم بالغ فى وصفه مبالغة غير مستساغة .

من ذلك مثلا ما قيل عن الوريجا Warega فى الكونجو (البلجيكى سابقاً) من أن كل الأسر لديهم متعددة الزوجات .

وما روى عن البانجنجى Banjange فى الكمرون والموسى Mossi فى مالى من أن معظم الرجال للرجل من زوجتين إلى أربع .

بل إن مؤلفاً هولندياً قديماً قال عن تعدد الزوجات فى بنين Benin أنه لا يوجد بها رجل لديه أقل من عشرة أو اثنتى عشرة امرأة .

واضح أن هذه الأقوال وأمثالها ينقصها شىء كثير من الدقة . ولا شك أنها جاءت نتيجة الملاحظة العابرة التى لا ترقى إلى مرتبة الدراسة العلمية . والملاحظ أن المبالغة فى وصف تعدد الزوجات تزداد لدى قدامى المؤلفين . فقديماً كان الأوروبيون فى شوق إلى معرفة كل جديد عن أفريقية القارة المليئة بالغرائب والطرائف ، ومن الرحالة والمستكشفين من كان يستغل فى جمهور القراء هذا الشوق فيطرفه بأخبارها لكن بعد أن يغلفها بالمبالغة . على العكس من ذلك نجد الاتجاه واضحاً لدى الباحثين المحدثين نحو نفى الفكرة التى روج لها القدامى من أن لكل رجل فى أفريقية عدداً كبيراً من النساء .

من ذلك مثلا ما يقرره فيليبس Phillips فى دراسة اجتماعية لسكان الباكونجو Bas-congo من أنه من الخطأ القول بأن معظم الرجال فى مجتمع يأخذ بتعدد الزوجات يحوز الواحد منهم أكثر من زوجة . فالعدد النسبى للجنسين من شأنه أن يحول دون تحقق هذا الوضع بالنسبة للسكان جميعاً . وأن تعدد

الزوجات يقتصر فى الواقع على الرجال الأثرياء بينما يضطر الفقراء إلى الاكتفاء بزوجة واحدة، أما المدقعون فقد لا يتيسر لأحدهم الزواج مطلقاً .

كذلك يقرر بروريارت Proyart نفس الشيء بالنسبة لسكان اللوانجو Loango ويضيف أن الأثرياء الذين يستطيعون الاستفادة من امتياز تعدد الزوجات قلة(١).

وبالنسبة للكمبا يقول لندبلوم Lindblom أنه على الرغم من انتشار تعدد الزوجات فإن عدداً كبيراً من رجال الأكمبا لا يستطيع الحصول على أكثر من زوجة واحدة وأن العدد الأكثر شيوعاً للزوجات هو واحد إلى ثلاثة . ويضيف أنه إذا أجريت بحوث إحصائية فإنها ستظهر أن نسبة أولئك الذين لديهم أكثر من ثلاثة قليلة جداً ، ويخلص إلى أن المفهوم السائد بالنسبة لتعدد الزوجات من أن لكل رجل عدداً كبيراً من الزوجات يبعد كثيراً عن الحقيقة ، وأن تعدد الزوجات لا يمكن أن يكون الشكل العادى للزواج ما دام أنه يقتضى أن يكون عدد النساء ضعف عدد الرجال(٢).

ويتحدث شابيرا Schapera عن تعدد الزوجات لدى البانتو ، بصفة عامة ، فيقول إن البانتو جميعاً كانوا يبيحون تعدد الزوجات ، إلا أن ذلك بطبيعة الحال لا يعنى مطلقاً أن كل

---

(١) Westermarck, Histoire du mariage, vol. 5, p. 23.

(٢) The Akamba, p. 81.

رجل كانت له أكثر من زوجة . فالرجال الأكثر ثراء ونفوذاً هم ، بوجه عام ، الذين كانوا متعددى الزوجات .
نخلص من ذلك بأن تعدد الزوجات وإن كان شائعاً لدى كثير من الشعوب الأفريقية ، إلا أنه لا يصل لدى أى منها إلى أن يكون هو الطابع الغالب على الزواج . فلكى يكون لكل رجل فى القبيلة أو الشعب زوجتان لا بد بطبيعة الحال أن يكون عدد النساء فى هذه القبيلة أو هذا الشعب ضعف عدد الرجال ، وهو أمر ليس من السهل تحققه . فما بالك بما زعمه البعض بالنسبة لبعض الشعوب من أن معظم الرجال كان لكل واحد منهم أكثر من زوجتين ؟ . فتعدد الزوجات إذن لا يمكن أن يكون الشكل العادى أو الغالب للزواج . ولا بد أن نخلص بأن معظم الرجال فى شعب من الشعوب يقتصر على زوجة واحدة . وتنحصر ممارسة تعدد الزوجات فى دائرة تضيق أو تتسع لكنها على أية حال لا تصل إلى أن تستغرق القبيلة كلها أو الجزء الأكبر منها .
لكن انتهاءنا إلى هذه النتيجة ينبغى ألا يحول دوننا والاعتراف بأنه فى الأزمنة الماضية وقت أن كانت حملات الاسترقاق على أشدها على الساحل الغربى لأفريقية لا بد أن بعض الجهات انتهى بها الأمر إلى أن أصبح عدد النساء بها يتجاوز كثيراً عدد الرجال . فمن الثابت أن الأوربيين فى حملاتهم لاقتناص الأفريقيين كانوا يستهدفون بصورة خاصة الحصول على الأيدى العاملة اللازمة لمزارع القصب والمناجم فى الأمريكيتين وجزر

الهند الغربية ، ولذلك كان من الطبيعى أن تنصب حملاتهم على الرجال أكثر منها على النساء . والنتيجة المنطقية لذلك أن يزداد عدد النساء فى الجهات التى تعرضت لحملات الاسترقاق على عدد الرجال . وقد يصل النقص فى عدد الرجال حداً يجعل من الممكن تحقق الصورة التى رسمها بعض المؤلفين لتعدد الزوجات ، حيث يصبح الوضع المألوف للأسرة .

ثانياً : الأسباب التى تدعو الرجال إليه

هناك طائفة من الاعتبارات يخضع لها الأفريقيون فى ممارستهم تعدد الزوجات نستعرضها فيما يلى :

أولا: الرغبة فى الحصول على ذرية وهى رغبة طبيعية نجدها لدى الرجال جميعاً . فكل رجل يود أن تكون له ذرية تعينه فى حياته وتكون ذكراً له بعد مماته . هذه الرغبة الطبيعية للرجل تشتد وتقوى لدى الرجل الأفريقى . فالرجل الأفريقى فى فى حاجة إلى أبناء يؤمنونه ويضمنون له شيخوخة مريحة . فالحياة الأفريقية ليست سهلة هينة . فهى تقتضى العمل المستمر والكفاح الدائب من أجل الحصول على القوت اليومى ، ومن الطبيعى أن يسعى الرجل إلى الحصول على أبناء وبنات يساعدونه ويكونون له عدة فى المستقبل . وحاجة الرجل الأفريقى إلى أبناء بعد موته لا تقل أهمية عن حاجته إليهم أثناء حياته . فعبادة أرواح الأسلاف من أكثر العبادات شيوعاً لدى الشعوب

الأفريقية . ومن مقتضيات هذه العبادة وجود ذرية تقدم القرابين والأضاحي لأرواح الأسلاف فى المناسبات المختلفة حتى يطيب لها المقام فى عالمها الآخر . ولذلك فإن الرجل إذا تبين أن زوجته عاقر وجد نفسه مدفوعاً إلى اتخاذ زوجة أخرى تحقق له ما عجزت الأولى عن تحقيقه . حقاً فى وسع الرجل فى مثل هذه الحالة أن يطلق زوجته العاقر ، ويحدث هذا فى حالات غير قليلة ، لكن الرجل قد يرغب فى الاحتفاظ بزوجته العاقر لتعلقه بها وراحته إليها وعندئذ لا يجد مفراً من اتخاذ زوجة ثانية .

ثانياً : لا يرغب الرجل الأفريقى فى مجرد الحصول على ذرية وإنما يرغب فى الحصول على أكبر عدد منها . فالرجل على يقين ، من أنه كلما ازداد عدد أولاده ازدادت ثروته وازداد نفوذه وقويت شوكته ، فالعمل لدى الشعوب الأفريقية مصدر الثروة ، وكلما ازدادت الأيـدى العاملة نمت الثروة ، والنفوذ لديها يرتبط بكثرة العدد ، فكلما كثر أفراد الأسرة أو الجماعة ازدادت عزة ومنعة . فالرجل يشعر فى أعماقه برغبة قوية فى زيادة أفراد بيته ، والمرأة الواحدة لا تستطيع أن تسعف الرجل بتحقيق هذه الرغبة . ذلك أن المرأة الأفريقية لا تنجب من الأولاد الكثير ، ففترات حملها متباعدة لاعتبارات سنذكرها فيما بعد، ومتوسط ما تلده لا يتجاوز الأربعة أو الخمسة . فضلا عن أن نسبة الوفاة بين الأطفال

كبيرة . ويدرك الرجل أنه لكى يحصل على عدد كبير من الأولاد لا بد أن يعدد من مصادرهم .

ثالثاً : يؤدى الزواج لدى الأفريقيين إلى نشوء علاقات وطيدة بين الرجل وأقارب زوجته . وتنطوى هذه العلاقات على حقوق والتزامات متبادلة . وكلما زاد الرجل من عدد زوجاته اتسعت شبكة هذه العلاقات . وكلما اتسعت هذه العلاقات ازداد مركزه قوة ، وازدادت حيـــاته أمناً واستقراراً ، فالرجل ذو النفوذ يسعى الجميع إلى خطب وده ، والاتصال به والتقرب إليه .

رابعاً : للمرأة أهمية اقتصادية كبيرة لدى كثير من الشعوب الأفريقية . فهى فضلا عن قيامها بالأعمال المنزلية تلعب دوراً هاماً بالنسبة للحياة الاقتصادية للأسرة . فأحياناً يقع على عاتقها العمل الزراعى كله أو معظمه وأحياناً تسلهم فيه مساهمة جدية . وزيادة عدد الزوجات من شأنه أن يمكن الرجل من زيادة منتجاته الزراعية . ووفرة المنتجات الزراعية مع كثرة عدد الزوجات تمكن الرجل من تقديم الطعام والجعة لكل من يأتى لزيارته أى تمكنه من ممارسة القرى على نطاق واسع ومن شأن ذلك أن يجلب له السمعة الطيبة ويجذب إليه جيرانه ، ويرغب الناس فى توطيد علاقتهم به . ومن ثم فإن الرجل يجد كثرة

عدد نسائه طريقاً إلى الشهرة والمجد[١] . ونتيجة لذلك أصبح تعدد الزوجات في ذاته رمزاً ومعياراً لنفوذ الرجل ومكانته ، فالرجل الذى يستطيع أن يجذب إليه عدداً كبيراً من النساء ، والذى يقوى على توفير ما يحتجن إليه لا بد أنه رجل قوى ماهر ولذلك فهو جدير بالاحترام والتقدير .

خامساً : يستتبع الاقتصار على زوجة واحدة بعض المتاعب بالنسبة للرجل والرجل يسعى إلى تفادى هذه المتاعب أو التخلص منها باتخاذ زوجة إضافية أو أكثر كلما كان ذلك ممكناً . فالرجل يضطر إلى الابتعاد عن زوجته بضعة أيام كل شهر ، وهي الأيام التى تستغرقها دورتها الشهرية . فمعظم الشعوب الأفريقية تنظر إلى دم الحيض بوصفه خطراً على الرجل ، حيث يسود الاعتقاد بأن الرجل الذى يتصل بزوجته أثناء فترة الحيض يعرض نفسه للاصابة بأمراض خطيرة إن لم يكن للموت . ولا يقتصر الأذى أحياناً على الاتصال الجنسى ،

---

(١) يقول Junod بالنسبة للتونجا Thonga أنه فى الأسرة المتعددة الزوجات تلتزم كل زوجة بأن تحضر للرجل فى المساء الصحن الذى أعدته له. وبهذا يصبح قوياً شديداً ، وكلما زادت قوته وشدته زاد احترام الناس له . وهو يستقبل أولاده كما يستقبل الزوار والغرباء والفقراء ويقدم إليهم الطعام . فيشيد الناس بكرمه وسخائه ويكتسب شهرة وتقديراً قد يفوق تقدير الرئيس . والخلاصة أن مجد الأفريقى هو قبل كل شيء مسألة قدور ومسألة القدور ترتبط ارتباطاً مباشراً بتعدد الزوجات . انظر Westermarck, p. 89 .

بل يمتد إلى شخص المرأة كله ، فينظر إليها باعتبارها مصدر خطر ينبغي تجنبه . ومن ثم فإن العرف لدى بعض الشعوب يحرم عليها إعداد الطعام لزوجها أو لمس الأدوات الخاصة به . ومعنى ذلك أن الحياة الزوجية تتوقف توقفاً تاماً خلال هذه الفترة .

كذلك يقضي العرف لدى كثير من الشعوب الأفريقية بوقف العلاقات الجنسية بين الرجل وزوجته بمجرد الحمل أو على الأقل فى الشهور الأخيرة منه . بل إن تحريم الاتصال الجنسى لا يقتصر على فترة الحمل ، وإنما يمتد خلال فترة الرضاعة حتى فطام الطفل ، وقد تطول هذه الفترة فتصل إلى سنتين أو ثلاثة .

فى (داهومى) مثلا لا يتصل الزوجان جنسياً لمدة ستة شهور على الأقل بعد الولادة ، وفى حالات كثيرة يستمر ذلك مدة سنة أو أكثر . ويسود الاعتقاد فى داهومى بأن الأسلاف قد أبانوا أنه إذا حدث اتصال بعد الولادة بفترة قصيرة فإن الولد الذى يولد من الحمل الثانى يولد مريضاً ومصيره الموت .

ولدى الأوى يمتنع على الرجل الاتصال بزوجته بمجرد حملها حتى فطام طفلها أى خلال مدة تتراوح بين سنتين وثلاثة .

كذلك لدى البامبوتى (إحدى قبائل الأقزام فى الكونجو)

ينقطع الاتصال الجنسى فى الشهور الأخيرة من الحمل ، ويستمر لبضعة شهور بعد الوضع .

فالرجل الأفريقى إذن يجد نفسه محروماً من الاتصال بزوجته خلال فترة أو فترات قد تطول . ولا شك أن الرجل فى مثل هذه الحالة يجد نفسه مدفوعاً إلى اتخاذ زوجة أو زوجات إضافيات حتى لا يضطر إلى مثل هذا الحرمان المستمر .

سادساً : قد يجد الرجل نفسه بين عشية وضحاها ، وقد فقد الخدمات المنزلية التى تؤديها كل زوجة لزوجها . فقد تذهب المرأة لزيارة أهلها وقد يطول مقامها لديهم إذا كانوا يقيمون على مسافة بعيدة . ومن أهم المناسبات التى تلجأ فيها المرأة لزيارة أهلها وفاة أحد أقاربها ، فالتقاليد تفرض عليها المشاركة فى الحداد عليه ، ويتطلب ذلك عادة إقامتها مع أهلها فترة طويلة . وقد يصيب المرأة مرض يعجزها عن القيام بالأعمال المنزلية اللازمة . فى كل هذه الحالات يجد الرجل نفسه وقد حرم من الشخص الذى يعد له طعامه وشرابه وأصبح عالة على جيرانه . ولا شك أن الرجل فى مثل هذه الظروف يرحب باتخاذ زوجة ثانية حتى لا يخلو بيته من امرأة تعد له الطعام وتقوم بحاجته .

سابعاً : قد يلجأ الرجل لدى الشعوب الرعوية إلى تعدد الزوجات ليؤمن نفسه ضد ضياع ثروته من الماشية . فالرعاة يتعرضون لخطر انتشار الأوبئة بين قطعانهم ، وقد يجدون أنفسهم

وقد فقدوا فى فترة قصيرة كل قطعانهم أو جزءاً كبيراً منها . ولذلك فإنهم يسعون إلى الاحتياط لهذا الخطر ، ومن وسائل ذلك أن يتخذ الرجل عدة زوجات يقيم لهن أكواخهن فى مناطق متباعدة بحيث إذا انتشر الوباء فى ماشيته فى منطقة معينة سلمت له الماشية التى فى المناطق الأخرى . ويشبه الخوف من انتشار الأوبئة فى هذا الخصوص الخوف من غزوات سلب الماشية التى يتعرض لها أصحاب القطعان من أفراد القبائل المجاورة .

ثامناً : قد يأتى تعدد الزوجات نتيجة التقليد المعروف بوراثة الأرامل ، الذى يقضى بأنه فى حالة وفاة رجل عن زوجة يكون أقرب أقاربه ملزماً بمعاشرتها . كما قد يأتى نتيجة التقليد الذى يقضى بضرورة أن يتزوج القريب امرأة لاسم قريبه الذى مات دون زواج . فى مثل هذه الحالات يعتبر الزواج كقاعدة عامة قائماً بين المرأة والرجل الميت لا بينها وبين قريبه ، بحيث إن الأولاد الذين يولدون من العلاقة الجديدة ينسبون إلى الرجل الميت نفسه . هذا من الناحية القانونية ، أما من الناحية العملية فإن علاقة القريب بأرملة قريبه لا تختلف فى طبيعتها عن علاقة الرجل بزوجته . فالرجل يلتزم فى مواجهتها بنفس الالتزامات التى يلتزم بها الزوج نحو زوجته ، وله عليها نفس الحقوق التى للزوج قبل زوجته . كذلك للأرملة نفس الحقوق وعليها نفس الواجبات التى للزوجة أو عليها . وإذا كان الرجل

متزوجاً من قبل فإنه يجد نفسه عند وفاة أبيه أو أخيه أو أحد أقاربه الآخرين وقد تعددت النساء فى بيته ، وإذا لم يكن الرجل قد تزوج من قبل فإن خلافته على أرملة قريبة لا تغنيه عن اتخاذ زوجة خاصة به . فى معظم الحالات يكون فارق السن كبيراً بين الأرملة وقريب زوجها ، وطبيعى أن يسعى القريب إلى اتخاذ زوجة أكثر شباباً وأقرب إلى سنه . ثم إن الأولاد الذين ينجبهم من الأرملة لا ينسبون إليه فلا يعتبرون أولاده ، وإنما ينظر إليهم بوصفهم أولاد الزوج الميت . وطبيعى أن يسعى الرجل إلى اتخاذ زوجة خاصة به يستطيع عن طريقها الحصول على ذرية تنسب إليه .

هذه إذن هى الأسباب التى تدعو الرجل الأفريقى إلى اتخاذ أكثر من زوجة ولعل القارىء قد أدهشه أننا لم نذكر من بينها سبباً لعله أول ما يتبادر إلى الذهن عند الحديث عن تعدد الزوجات ألا وهو رغبة الرجل فى التنقل والتغيير . وفى الحق أن هذا السبب كان يظن قديماً السبب الرئيسى لتعدد الزوجات . فقديماً كان الأوربيون ، وما زال البعض منهم ، يعتقدون أن تعدد الزوجات لدى الأفريقيين يرجع إلى ما يتميز به الرجل الأفريقى من غلمة أو شهوة جنسية عارمة ، بحيث لا تكفى لإروائها زوجة واحدة . إلا أن هذه الفكرة فى الواقع لا تستند إلى أساس سليم ، وإنما مبناها النظرة السطحية وسوء الظن . فقد اتضح من الدراسات المختلفة أن الرجال يقبلون على

تعدد الزوجات فى معظم الحالات لأسباب لا صلة لها بقوة الشهوة . ثم إن بعض الشعوب الأفريقية تسمح للرجل المتزوج بالاتصال جنسياً بفتيات غير متزوجات ، ومع ذلك فإن هذه الشعوب تمارس تعدد الزوجات . فلو كان تعدد الزوجات يستمد وجوده حقاً من الرغبة فى التغيير والتنقل لما كان من المفهوم وجوده لدى مثل هذه الشعوب . لكن ليس معنى ذلك أن هذا السبب لا يلعب دوراً أى دور ، فقد نجد فى الواقع حالات يلجأ فيها الرجل إلى تعدد الزوجات بقصد الحصول على زوجة أكثر شباباً أو أوفر جمالا ، لكن ذلك لا يحدث إلا فى حالات قليلة . والرجل حتى فى سعيه إلى اتخاذ زوجة ثانية أكثر شباباً أو أوفر جمالا لا يقع تحت تأثير هذا الاعتبار وحده وإنما يستهدف فى نفس الوقت الحصول على المزايا الأخرى التى يحققها اتخاذ زوجة إضافية .

وإذا كانت هذه هى الأسباب التى تدعو الأفريقيين إلى ممارسة تعدد الزوجات فإن تعدد الزوجات بوصفه نظاماً ما كان ليوجد لولا توافر ظرف خاص هو كثرة النساء وقلة الرجال . فتعدد الزوجات لا يتيسر تحققه بصورة طبيعية فى أحد المجتمعات إلا إذا كان عدد الإناث فيه يزيد على عدد الذكور زيادة واضحة ، وإذا نظرنا إلى المجتمعات الأفريقية وجدنا لديها أسباباً معينة من شأنها أن تؤدى إلى زيادة عدد الإناث على عدد الذكور . ويمكننا أن نلخص هذه الأسباب فيما يلى :

أول هذه الأسباب الغزوات والمعارك والحروب التى تنشب بين القبائل المتجاورة ، فقد كانت هذه المعارك والحروب شيئاً مألوفاً لدى هذه القبائل إلى عهد قريب . وكان السبب الغالب لها النزاع حول المرعى ومساقى المياه أو الرغبة فى الاستيلاء على ماشية الغير ، أو الرغبة فى التوسع والامتداد على حساب القبائل المجاورة . وضحايا مثل هذه المعارك والحروب هم عادة الرجال . وقد كانت العادة جارية بأن تنتقم الجماعة المنتصرة من الجماعة المهزومة بحرق أكواخها وقتل رجالها وسبى نسائها . ويؤدى ذلك إلى الإقلال من عدد الرجال فى القبيلة المنتصرة ، وفى الوقت نفسه يزداد عدد النساء بها نتيجة انضمام السبايا إليهم[١] .

---

(١) فلدى الكافر كان تعدد الزوجات النتيجة اللازمة لمعاركهم وحروبهم المستمرة التى كانت تجعل عدد النساء يفوق كثيراً عدد الرجال . وقد ترتب على قلة الحروب فى الوقت الحاضر أن أصبح من النادر مصادفة رجال يحوزون أكثر من زوجة أو زوجتين .

ويقول Ward بالنسبة لسكان وسط أفريقية لا سيما سكان الكونجو إن عدد النساء عادة يفوق كثيراً عدد الرجال لأن الرجال يقتلون عادة أثناء المعارك القبلية المستمرة .

وبالنسبة لزيادة عدد النساء نتيجة السبى والأسر يقول Leighton Wilson أنه لمواجهة الطلب على النساء من جانب الأشانتى تجرد البلاد المحيطة من جزء كبير من عنصرها النسائى فى الوقت الذى لا ترد فيه أى أنثى تولد فى المملكة إلى هذه البلاد المجاورة لتعويض خسارتها .

كذلك بالنسبة لغينيا الجنوبية عدد الإناث أكبر من عدد الذكور فى

ثانى هذه الأسباب هو أن الرجال أكثر تعرضاً للموت من النساء . فالرجال هم الضحية الغالبة لعادة الأخذ بالثأر . كما أن الرجال بحكم عملهم أكثر تعرضاً للموت نتيجة افتراس الحيوانات المتوحشة مثلا .

ثالث هذه الأسباب زيادة عدد مايولد من الإناث على ما يولد من الذكور . فالظاهر أن نسبة الإناث بين المواليد لدى الأفريقيين أكبر من نسبة الذكور[١] . ويمكن أن نضيف إلى ذلك ما هو معروف من أن الإناث أكثر مقاومة لأمراض الطفولة من الذكور مما يؤدى إلى إحداث فارق واضح فى نسبتهم بعد البلوغ[٢] .

الأقاليم الساحلية حيث يقوم الرجال بزيادة عدد زوجاتهم بسرقتهن من قبائل الأحراج الداخلية .

انظر فى كل ذلك Westermarck, p. 65-67 .

(١) يذكر Felkin ثلاثة أسباب لزيادة عدد الإناث على الذكور لدى الباجندا هى : الحركة المستمرة للنساء كسبايا ، موت عدد كبير من الرجال فى الحرب ، زيادة عدد المولودين من الإناث على عدد المولودين من الذكور ويعتقد Felkin أن السبب الأخير له أهمية كبيرة . انظر Westermarck, p. 68.

(٢) ويتحدث Smith, و Dale عن زيادة عدد الإناث على عدد الذكور لدى الإيلا بقولهما : إنه سواء أكانت هذه الزيادة ترجع لأسباب عامة كالجو الحار أو وفرة الغذاء أو ممارسة الزواج من الغرائب أم لا ، فإن من المؤكد أن هناك زيادة فى عدد المواليد من الإناث لدى الإيلا وتزداد النسبة اختلافاً نتيجة نسبة الوفيات المرتفعة بين الذكور ولذلك فإن التعداد يظهر أن هناك زيادة ١٠٪ فى عدد النساء البالغات على عدد الرجال .

رابع هذه الأسباب الفارق الواضح ، فيما يتعلق بسن الزواج ، بين الذكور والإناث . فالعادة المتبعة لدى الشعوب الأفريقية هي أن يتزوج الرجل من امرأة تصغره في السن ، ويتراوح فارق السن عادة بين خمسة وعشرة أعوام . ومن شأن هذا الفرق في سن الزواج أن يؤدى إلى زيادة عدد الإناث الصالحات للزواج على عدد الذكور الراغبين فيه أو القادرين عليه . ولذلك فكلما تأخر سن الزواج بالنسبة للشبان اتسعت دائرة الفتيات التى يختارون منها زوجاتهم .

تقول مونيكا ولسون Monica Wilson بالنسبة للنيا كيوسا Nykyusa مثلا أنه ليس هناك ما يدل على وجود اختلاف ملحوظ فى نسبة الذكور والإناث . إلا أن هناك فرقاً عشر سنوات أو أكثر فى متوسط سن الزواج بين الفتيات والرجال وهذا الاختلاف فى سن الزواج هو الذى يجعل تعدد الزوجات ممكناً . وتشير سجلات الضرائب فى أحد أجزاء الإقليم إلى أنه بين ٣٠٠٠ رجل فى سن الثامنة عشرة أو ما يزيد يوجد ٣٤٪ أعزب و ٣٧ ؛ متزوجا من زوجة واحدة و ٢٩٪ جامعاً لأكثر من زوجة . وقد دل البحث على أن الفتيان بوجه عام هم العزاب وأن الرجال فوق الخامسة والأربعين هم متعددو الزوجات .

كل هذه الأسباب تؤدى إلى زيادة عدد النساء على عدد الرجال . وقد عرفت بعض الشعوب القديمة كاليونان والرومان وبعض قبائل العرب فى الجاهلية طريقة للتخلص من الإناث

غير المرغوب فيهن تتمثل فى وأدهن . فبالنسبة للرومان مثلا هناك قانون ينسب إلى أحد ملوك روما الأقدمين ، مقتضاه أن الأب ملزم بتربية أبنائه الذكور جميعاً ، أما بالنسبة للبنات فهو غير ملزم إلا بتربية الأولى فحسب . ومعنى ذلك أنه بالنسبة لغيرها كان فى حل إن شاء تخلص منهن وإن شاء أبقى عليهن[1] . وكان اليونان يلجأون إلى وأد الأطفال أكثر ما يلجأون بالنسبة للإناث . كذلك اعتاد بعض الناس لدى بعض القبائل العربية وأد ما يولد لهم من إناث ، وفيهم نزل قوله تعالى : « وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت » . على خلاف هذه الشعوب لا نجد لدى الشعوب الأفريقية عادة وأد البنات . حقاً يلجأ الأفريقيون أحياناً إلى وأد الأطفال ، كما هو الحال بالنسبة للأطفال المشوهين والتوائم مثلا ، إلا أنهم لا يفرقون فى هذا الخصوص بين الإناث والذكور . ومعنى ذلك أن الشعوب الأفريقية لا تمارس أجراء معيناً تحاول به التغلب على

---

(١) هناك من الدلائل ما يشير إلى استمرار هذا التمييز فى العصور التالية. فنى قائمة ترجع إلى عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧ م) تضم الأطفال المقيدين من أجل الإعانة الغذائية فى مدينة واحدة ولسنة واحدة يوجد طفلان من زنا و ١٧٩ طفلا شرعياً . ويضم هذا العدد الأخير ٣٤ بنتاً مقابل ١٤٥ صبياً . وطبيعى أن هذا التفاوت الكبير بين عدد الإناث وعدد الذكور لا يمكن تفسيره إلا بافتراض أن عدد الإناث اللاتى كان يتخلص منهن كان أكبر بكثير من عدد الذكور . انظر المرأة عند الرومان للمؤلف ص ١٣٠ .

التضخم فى عدد الإناث وتسعى عن طريقه إلى تحقيق نوع من التعادل بين الجنسين . ومعنى ذلك بعبارة أخرى أنها تحتفظ بكل ما يولد لها من إناث وهو أمر يؤدى إلى توفير الظرف المناسب لقيام نظام تعدد الزوجات .

ثالثاً : موقف النساء من تعدد الزوجات

تكلمنا حتى الآن عن موقف الرجال بالنسبة لتعدد الزوجات ، ولكى تكون الصورة كاملة لا بد أن نتعرف أيضاً على موقف النساء منه. فهل ترحب المرأة الأفريقية بأن يتخذ زوجها امرأة أخرى ، وهل ترحب بأن تكون زوجة ثانية لرجل له زوجة أو أكثر ، أم هل تقف من ذلك موقف نفور ومعارضة ؟

فى الحقيقة ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال إجابة بسيطة ، ذلك أن المعلومات التى نقلت إلينا عن موقف النساء بالنسبة لتعدد الزوجات تتعارض فيما بينها . فمعلوماتنا عن بعض الشعوب الأفريقية تدل على أن المرأة لا تمانع فى أن يتخذ زوجها امرأة أخرى أو فى أن تتزوج رجلا له زوجة أو زوجات ، بل قد يسرها أن يفعل زوجها ذلك .

فلدى الكرو Kru فى خليج غينيا تفضل المرأة كثيراً أن تكون إحدى الزوجات الاثنتى عشرة لرجل محترم على أن تكون الزوجة الوحيدة لرجل ليس لديه من قوة الشخصية ما يرفعه فوق

مستوى الرجل ذى الزوجة الواحدة . وهى تفضل كثيراً القدر الكبير من الحرية الجنسية الذى تتمتع به بوصفها إحدى الزوجات الاثنتى عشرة على الرقابة المباشرة التى سوف تخضع لها بوصفها الزوجة الوحيدة فى البيت .

ولدى الوريجا Warega ليس أفضل عند النساء من أن يكون عددهن بالغ الكثرة ، فذلك دليل الثراء ، ومن شأنه أن يقلل من أعمالهن .

ولدى الموسى Mossi ترغب الزوجة الأولى رغبة عميقة فى أن يتخذ زوجها أكبر عدد ممكن من الزوجات ، لأن ذلك يزيد من سلطتها[١] .

ولدى الإوى Ewe يسر الزوجة الأولى أن يتخذ زوجها زوجة ثانية ففى ذلك تحسين لمركزها حيث تصبح الزوجة الرئيسية وربة البيت وبصفتها هذه تشرف على الزوجات الأخريات . وفى علاقتها بزوجها تحتل مكاناً ممتازاً وتكون موضع ثقته . كما أن تعدد الزوجات يعفى كلا منهن من جزء من العمل وقد أصبح مقسماً على بضعة نساء ، ومن ثم تجد كل منهن وقتاً أفسح لشئونها الخاصة .

وبالنسبة للكونجو يقول Harris إن المرأة فى الجهات الوثنية الخالصة تنظر إلى تعدد الزوجات بوصفه وضعاً مرغوباً فيه . وهى تحتج لذلك بأن مكانة الزوج تقاس بممتلكاته من الزوجات

---

(١) Westermarck, p. 95.

والماشية . وتفضل أن تكون زوجة رجل عظيم على أن تكون زوجة رجل تافه لا يقوى على حيازة أكثر من زوجة واحدة . وتشير فضلا عن ذلك إلى أن الرجل إذا كانت له عدة زوجات فإن عبء الزراعة وصيد السمك . . . والواجبات المنزلية وقد توزعت على أربع أو خمس زوجات تكون أخف بالنسبة لكل منهن .

وروت إحدى السيدات الإنجليزيات أنها عند ما سألت زوجة أحد رؤساء الكيكويو عما ينبغى أن تقوله للنساء البيض عند عودتها إلى إنجلترا عن نساء الكيكويو ، ردت عليها قائلة « قولى لهن شيئين : الأول أننا لا نتزوج مطلقاً شخصاً لا نريده ، والثانى أننا نحب أن يتخذ أزواجنا أكبر عدد ممكن من الزوجات »[١].

ويقول Livingstone أنه عند ما سمع عدد من السيدات الماكو لولو Makololo أن الرجل فى إنجلترا لا يستطيع الزواج بأكثر من واحدة صحن قائلات : إنهن لا يحببن الحياة فى بلد كهذا ، ولم يكن فى استطاعتهن أن يتصورن كيف أن السيدات الإنجليزيات ينفرن من تعدد الزوجات ، ففى رأيهن كل رجل محترم يجب عليه أن يحوز عدداً كبيراً من

---

(١) Routledge, With a prehistoric people. The Akikuyu of British East Africa, p. 124.

النساء كدليل على ثرائه[١] .

ويتحدث لنديلوم عن موقف المرأة من تعدد الزوجات لدى الأكمبا فيقول إن الزوجة الكبيرة تحب عادة أن ترى زوجها يتخذ زوجات متعددات لأنهن يرفعن عن كاهلها جزءاً كبيراً من العمل . فهى تستطيع ، نظراً لمركزها الأسمى ، أن تترك لهن الأعمال الشاقة كقطع الأخشاب وحمل الماء وغلق حظائر الماشية بالليل وفتحها فى الصباح .

كذلك الحال بالنسبة لنساء الكافر (فى جنوب أفريقية) حيث تقول عنهن لورا لونجمور Laura Longmore إنهن لم يكن يعارضن تعدد الزوجات لأن إحدى النتائج العملية المترتبة عليه كانت الإقلال من عمل كل منهن فى البيت والحقل تبعاً لازدياد عددهن . فضلا عن أن تعدد الزوجات كان يعنى زيادة فى مكانة الزوجة الرئيسية ، فكلما ازداد عدد الزوجات الإضافيات ارتفعت مكانتها .

على العكس من ذلك تدل المعلومات التى لدينا عن عدد من الشعوب الأفريقية الأخرى على أن المرأة تنفر من تعدد الزوجات ، وتنظر إليه نظرة تنطوى على كراهية .

فلدى البامبوتى وهم إحدى قبائل الأقزام فى الكونجو لا تنظر

---

(١) فى وستر مارك ص ٩٥ ، انظر أيضاً بالنسبة للتونجا

Colson, Marriage and the family among the Plateau Tonga of Northern Rhodesia, p. 124.

النساء إلى تعدد الزوجات بعين الارتياح[١].

ويقول دوك Doke بالنسبة لللامبا Lambas (فى روديسيا الشمالية) أن الزوجة لا ترغب مطلقاً فى أن يتخذ زوجها زوجة ثانية. وأن الزوجة الأولى تثير كثيراً من المتاعب قبل أن يتمكن الرجل من إحضار زوجة ثانية. ويفاتح الرجل زوجته برغبته فى اتخاذ زوجة ثانية، قائلا : « زوجتى ، أريد اتخاذ زوجة أخرى لأن العمل يرهقك، وفى الأوقات التى تكونين فيها مريضة اضطر إلى إعداد طعامى بنفسى وقد تجيب المرأة : « يمكنك أن تتزوج ، لكننى سأعود إلى أهلى غداً » . فيرد عليها زوجها : حسناً ، وسآتى أنا لأحصل على بندقية تعويضاً عن هجرك » . فترد عليه المرأة قائلة : « حسناً ، سيحصل أقاربى على بندقية ويعطونها لك » . وبعد هذه المشاحنة يأخذ الرجل خاتماً إلى المرأة التى وقع عليها اختياره كزوجة ثانية . وإذا قبلت هذه الأخيرة الزواج منه انتظرت الزوجة الأولى حتى يبنى الزوج بزوجته الجديدة ، ثم تذهب إليها وتتعارك معها .

وتقول Elisabeth Colson بالنسبة للتونجا إن كثيراً من النساء يبدين كراهية عميقة لتعدد الزوجات قائلات إن الزوجات اللاتى يقتسمن رجلا واحداً تكون بينهن دائماً غيرة ومشاجرات . كما تقول إن عبارة « إنه تعدد الزوجات » تأتى إلى أفواههن

---

(١) Schebesta, Les pygmées du Congo Belge, p. 241.

دائماً بمناسبة الحوادث غير السارة . وروت أن امرأة عجوزاً أتت إليها فى إحدى المناسبات وهى ترتدى جلد ماعز وطلبت إليها أن تعطيها بعض الثياب ولما سألتها لماذا لا يقوم زوجها بكسوتها ، أجابت نيابةعنها النساء الأخريات قائلات : إنه تعدد الزوجات . تزوج زوجها امرأة ثانية ولم يعد يعنى بها . هل ترين الآن لماذا نقول إن تعدد الزوجات شىء قبيح ؟ » .

وروت أيضاً أنه فى إحدى الليالى عند ما جىء بعروس شابة لرجل له زوجة من قبل أصغت جماعة من النساء إلى صوت قدومها وأخذتهن الرأفة بالزوجة الأولى قائلات : « إن هذه الليلة لأليمة لها ، لسوف تذرف الدموع ، بينما يرقد زوجها مع زوجته الجديدة . إنه تعدد الزوجات[1] » .

ويروى لنا Campbell نقلا عن أحد رجال الومبا Wemba الكيفية التى يتم بها عرض الزواج على فتاة ، فيقول إن الراغب فى الزواج يذهب لزيارة الفتاة التى يريد الزواج منها ويعرض عليها اقتراحه قائلا : « أريدك أن تكونى زوجة لى » . وتجيب الفتاة « نعم ، سيدى ، أوافق طالما أنك تحبنى حقيقة » . ويجيب الرجل « نعم ، سيدتى ، فى صدق دون كذب ، أحبك » . وعندئذ توافق الفتاة قائلة « أوافق إذن ما دمت تحبنى لكن تذكر أننى لا أريد أن أكون زوجة فى بيت متعدد الزوجات ، لأن تعدد الزوجات لا خير فيه للمرأة » . ويجيب

(١) فى كتابها المشار إليه آنفاً ص ١٢٣ .

الرجل « لا ، لن أتزوج بأخرى مطلقاً ، أريد الزواج منك أنت فحسب » ، وتوافق الفتاة قائلة « حسناً . لنتزوج[1] » .

وروت مونيكا هنتر Monica Hunter أن أحد رجال البوندو Pondo (فى اتحاد جنوب أفريقية) سألها عن سبب اكتفاء الرجال البيض كل بزوجة واحدة وعدم اتخاذهم زوجات أخريات رغم ثرائهم . وعندما أجابته بقولها : « إننا معشر النساء البيض ما كنا لنحتمل ذلك ولو أنهم فعلوا لأسرعنا بالعودة إلى أهلنا » رد عليها قائلا : « آه ، الغيرة ! حسناً ، إنه شيء يحدث معنا أيضاً . فكثيراً ما تكون لرجل زريبة ملأى بالماشية ومع ذلك لا يقدر أن يتخذ زوجة ثانية بسبب غيرة زوجته العظيمة » . ومع ذلك فطبقاً لما تقرره مونيكا هنتر هناك حالات تحث فيها النساء أزواجهن على اتخاذ زوجات أخريات لمساعدتهن بعملهن ويعشن معا فى سعادة . وتفضل المرأة بطبيعة الحال أن تكون الزوجة العظيمة للزوج ، لكن إذا أحبت فتاة رجلا حباً صادقاً فإنها لا تبالى أن تكون زوجة إضافية .

وعلى ذلك يبدو لنا أن موقف النساء من تعدد الزوجات ليس واحداً لدى جميع الشعوب الأفريقية . فلدى بعض هذه الشعوب لا تمانع المرأة فيه ، بل قد ترحب به ، بينما لدى البعض الآخر تخافه المرأة وتخشاه ، إلا أن الأمر يقتضى إبراز ملاحظتين :

(١) In the heart of Bantuland, p. 151 .

أولاهما : أنه تجب التفرقة بين موقف المرأة من رغبة زوجها اتخاذ زوجة ثانية ، وبين موقف المرأة إزاء الزواج من رجل له زوجة أو زوجات .

فبالنسبة للمرأة التى يرغب زوجها فى اتخاذ زوجة ثانية هناك من الظروف ما قد يخفف من اعتراضها على رغبة زوجها . من هذه الظروف مثلا أن تكون عاقراً أو أن يكون السن قد تقدم بها ، أو أن تكون هى الزوجة الأولى . فالزوجة الأولى كما سنرى تتمتع بمركز ممتاز بالنسبة لبقية الزوجات ، ولن يضيرها كثيراً أن يتخذ زوجها زوجة أخرى أو أكثر . فزواجه من أخريات هو الظرف الذى يؤدى إلى تمييزها عن بقية الزوجات ، هو الظرف الذى يبرز مكانتها السامية بالنسبة لهن ، وقد يعترف للزوجة الأولى ، لدى بعض الشعوب بسلطة معينة على الزوجات الإضافيات . وإذا لم تكن هى الزوجة الأولى فلن يضيرها كثيراً أن يزيد عددهن واحدة أو اثنتين . بل لتعدد الزوجات أحياناً مزايا من وجهة نظر الزوجة بحيث لا تجد مانعاً من أن يتخذ زوجها زوجة أخرى أو زوجات ، وقد ترحب بتصرفه هذا ، بل قد تدفعه هى إليه .

ونستطيع أن نذكر بين المزايا التى تجدها المرأة فى تعدد الزوجات المزايا التالية :

١ — يؤدى تعدد الزوجات إلى توزيع العمل على عدد أكبر ويؤدى ذلك إلى الإقلال من نصيب كل منهن فيه .

ومن ثم تجد كل امرأة من الوقت ما تنفقه على شئونها الخاصة .

٢ — يسود بين الزوجات عادة نوع من التعاون ، فتساعد كل منهن الأخرى فى القيام بأعمالها المنزلية والأعمال الخاصة بالزراعة . ومن شأن ذلك أن يسهل العمل أولا ، وأن يجد نوعاً من التأمين ثانيا ، بحيث إذا مرضت إحدى الزوجات أو أصابها عارض حال دونها والقيام بواجباتها حلت الأخرى محلها حتى تبرأ المريضة أو يزول العارض .

٣ — قد تفضل المرأة أن يتخذ زوجها زوجة ثانية على أن ينغمس فى علاقات مع نساء غير متزوجات . فمثل هذه العلاقات تكون عادة باهظة التكاليف . ومن ثم فهى تستنزف جزءاً كبيراً من دخل الأسرة تحرم منه الزوجة وأولادها ، دون أن تقابله مساهمة من جانب هؤلاء النسوة فى زيادة دخل الأسرة . بخلاف الحال بالنسبة للزوجة . فالزوجة لاتستتبع كل هذه النفقات فضلا عن أنها تساهم فى تنمية ثروة الأسرة ، وترى المرأة فى انغماس زوجها فى علاقات جنسية خارج الزواج وجهاً آخر من الضرر . حيث يسود الاعتقاد لدى بعض الشعوب (السوكوما مثلا) بأن عدم وفاء الزوج يعرض حياة الطفل للخطر .

٤ — فى جهات كثيرة من أفريقية يعيش الناس فى بيوت يبعد بعضها عن البعض الآخر ، وقد تجد الزوجة نفسها وحيدة محرومة من جيران على مقربة منها وفى اتخاذ زوجها زوجة ثانية

ما يوفر لها زميلة تخفف عنها الوحدة[١].

هذا بالنسبة لموقف المرأة المتزوجة من تعدد الزوجات ، أما بالنسبة للفتيات ومدى استعدادهن للزواج من رجل متعدد الزوجات ، فإن هناك اعتبارات معينة قد تحبب إلى الفتاة الزواج من مثل هذا الرجل أو على الأقل تخفف من نفورها منه . من هذه الاعتبارات أن تعدد الزوجات ينظر إليه بوصفه معياراً لثروة الرجل ونفوذه ، ولذلك فقد تفضل الفتاة الزواج

---

(١) يقول Willoughby مثلا "Europeans often suggest that polygamy must be repugnant to the women of a polygamous marriage; on the contrary, a husband is often urged by his wives to add another to the group ... The more wives, the more shoulders to carry the burden of the family, and the greater the glory of the establishment". (Race problems in the New Africa, p. 114).

ويقول : Smith و Dale, بالنسبة لنساء الايلا : Ba-ila women can be most furiously jealous; and the only things that reconcile them to sharing their husbands with other women are the fact that many hands make light work and the reflected dignity that comes of being the wife, albeit an inferior one; of a wealthy man.

(The ila-speaking peoples of Northern Rhodesia, p. 65).

انظر أيضاً : Hunter, Reaction to conquest, p. 203.

و Cory, Sukuma law and custom, p. 53.

و Lindblom, The Akamba, p. 81.

من مثل هذا الرجل على أن تكون الزوجة الوحيدة لرجل فقير . وقد تفضل الفتاة الزواج من رجل متعدد الزوجات إذا كانت حياته معهن تتسم بالاستقرار ، ولا تفوح منها رائحة المتاعب والمضايقات . فالفتاة قد تفضل الارتباط بمثل هذا الرجل الذى دلت التجربة على صلاحيته كزوج على الدخول مع رجل غير متزوج فى تجربة لا تعرف نتيجتها ، وقد تنطوى بالنسبة لها على مفاجآت لا تسر ، فضلا عن أن الفتاة تتوقع بزواجها من مثل هذا الرجل التمتع بحرية كبيرة نسبياً . فهذه إذاً اعتبارات من شأنها أن تؤثر فى توجيه رغبة الفتاة ، وذلك طبعاً فى الحدود التى يسمح فيها لإرادتها بأن تكون حاسمة فى أمر الزواج .

وينبغى أن نلاحظ أخيراً أن إرادة الفتاة أو المرأة قد لا تكون حرة تماماً فى المفاضلة بين الرجل المتعدد الزوجات ، والرجل غير المتزوج . فالزواج هو حياة المرأة الأفريقية ، ولا حياة لها خارج الزواج . فالعزبة لا وجود لها فى المجتمع الأفريقى فى ظل ظروفه الأصيلة ، وكل النساء يسعين إلى الزواج وينتظرنه فى لهفة وشوق وقد لا تعرض للفتاة فرصة الزواج من رجل غير متزوج ، وعندئذ لا تجد بدا من أن ترضى بأن تكون زوجة لرجل له زوجة أو أكثر .

هذه هى الملاحظة الأولى . أما الملاحظة الثانية فهى تنصب على معرفة ما إذا كانت النساء لدى بعض الشعوب الأفريقية

يبدين نفوراً طبيعياً من تعدد الزوجات أكثر مما تبديه النساء لدى البعض الآخر . فى الواقع ليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأن نساء بعض الشعوب الأفريقية يتميزن عن غيرهن بغيرة مفرطة ، وهنا قد تحول هذه الغيرة دون قبول الزوجة اتخاذ زوجها امرأة أخرى ، كما قد تحول دون المرأة والزواج من رجل له زوجة . لكن يبدو أن الأكثر شيوعاً هو أن يحدث التفاوت بين نساء الشعب الواحد بحيث يوجد فى الجماعة أو القبيلة الواحدة أفراد من النساء يتميزن بغيرة شديدة وقد تؤدى هذه الغيرة إلى النتائج التى أشرنا إليها . ويخيل إلىّ أن الغيرة الشديدة يغلب وجودها لدى النساء اللاتى ما زلن فى ربيع حياتهن بحيث يمكن القول بأنها تأخذ فى الضعف كلما تقدمت السن بالمرأة ، ومن ثم يزول سبب من أهم الأسباب التى تحول دون المرأة وموافقتها على اتخاذ زوجها زوجة أخرى .

رابعاً : القواعد التى تحكم تعدد الزوجات

نتكلم أولا عن عدد الزوجات ، ثم عن مدى حق الزوجة فى الاعتراض على رغبة زوجها فى اتخاذ زوجة ثانية ، وأخيراً عن علاقة الزوج بزوجاته وعلاقتهن فيما بينهن .

(١) عدد الزوجات :

لا نجد شعباً من الشعوب الأفريقية فى ظل ظروفها الأصلية

يضع حداً أقصى لعدد الزوجات اللاتى يجوز للرجل الجمع بينهن . فللرجل، من الناحية النظرية على الأقل ، أن يتزوج بأى عدد شاء من النساء . ومن الناحية العملية هناك من الشواهد ما يدل على أن بعض الأفريقيين قد استطاع أن يحصل على عدد كبير منهن . إلا أن هذا الوضع لا يتحقق عادة إلا بالنسبة للملوك والأمراء والرؤساء .

يقول أمين باشا بالنسبة للأونيورو Unyoro أنه من العار الشديد حتى بالنسبة للرئيس الصغير أن يكون لديه أقل من عشر إلى خمس عشرة زوجة ، أما الفقراء فلديهم دائماً ثلاث أو أربع .

ويقول آخر إن الرجال الأثرياء لدى الناندى Nandi يحوز الواحد منهم عدداً من النساء يصل إلى أربعين .

وروى ثالث أنه عند ما زار أحد رؤساء الباروتسى Barotse وجد عنده أكثر من سبعين امرأة .

ويقول رابع بالنسبة للمتابيلى Matabele إن تعدد الزوجات هو القاعدة وأن متوسط عدد النساء اللاتى يحوزهن رجل واحد يتراوح بين اثنتين وعدة مئات .

وقدر مؤلف عدد زوجات ملك Benin بستمائة ، وقرره آخر بألف ، وثالث بثلاثة آلاف ، ورابع بأربعة آلاف .

ويقال إن العرف لدى الأشانتى كان يحدد زوجات الملك بـ ٣٣٣٣ ، بحيث لا يجوز له أن يجمع فى حوزته أكثر من

هذا العدد من النساء ، وأن كان من الجائز أن يكون لديه أقل منه . كذلك يقال إن الملك « متيسا » أحد ملوك الباجندا المشهورين ، كان لديه أكثر من سبعة آلاف امرأة[١] ، إلا أن هذه الروايات تقتضينا إبداء ملاحظتين بخصوصها :

أول هذه الملاحظات هى ، أن القول بأن الملوك والرؤساء كانوا يحوزون مثل هذه الأعداد الضخمة من النساء ينطوى على قدر غير قليل من المبالغة ، ونستند فى إبداء هذه الملاحظة إلى أن أحد هؤلاء الملوك نسب إليه بواسطة مؤلفين مختلفين حيازة أعداد من النساء تتفاوت فيما بينها تفاوتاً عجيباً ، تتراوح بين ستمائة وأربعة آلاف . فالتقدير فى مثل هذه الحالات ، كان لا شك جزافياً لم يخضع لعملية حصر أو إحصاء دقيق . فضلا عن أن معلومات المؤلفين القدامى كانت تستقى فى معظمها من أفراد القبائل الذين يصحبونهم ويعينونهم فى حلهم وترحالهم ، ولهؤلاء الأفراد ميل طبيعى للمبالغة ، لا سيما إذا تعلق الأمر بموضوع عدد زوجات ملك الشعب أو أمير القبيلة . ففى اعتقاد هؤلاء أنهم كلما بالغوا فى وصف عدد هؤلاء النساء ، كان ذلك أبلغ فى تصوير قوة الملك ونفوذه ، وفى بيان عظمته وثرائه .

أما الملاحظة الثانية فهى ، أن هؤلاء النساء لسن كلهن حرائر ، والغالب أن يكون مصدرهن الأسر فى الحروب . حيث إن

---

(١) انظر فى كل ذلك : Westermarck فى مؤلفه المشار إليه ص ٢٥ .

القاعدة لدى كثير من الشعوب الأفريقية التى تخضع لسلطة ملك أو رئيس قوى ، كانت أن كل ما يغتنم فى الحرب لا سيما السبى من النساء يؤول إلى الملك ، وهو الذى يوزع منهن على رعاياه وفقاً لمشيئته . فهذه الأعداد الضخمة من النساء لا تمثل فى الحقيقة سوى تجميع للسبايا ، يختار الملك أو الرئيس منهن ما يمنحه لأصدقائه أو أقاربه أو رعاياه الذين يقومون من أجله بخدمات ذات أهمية ، فهؤلاء النسوة يكن بين يديه وسيلة للمكافأة ، وسبباً إلى تقوية الصلات مع أفراد شعبه . وعلى ذلك فإن حيازة مثل هذه الأعداد الهائلة من النساء لا يدخل ضمن مفهوم تعدد الزوجات . ولا شك أن الملك أو الرئيس الذى كان يحوز مثل هذه الأعداد الكبيرة كانت له زوجاته بالمعنى الدقيق أى أولئك النسوة اللاتى يتمتعن بمكانة واحترام ومركز قانونى معين . وفى اعتقادنا أن عدد هؤلاء لم يكن يصل إلى مثل هذه الكثرة ، قد يصل إلى عشر أو خمس عشرة أو عشرين ، لكن نشك فى أنه كان يتجاوز هذا الرقم تجاوزاً كبيراً .

لنترك الملوك والرؤساء جانباً فهم مهما كثر عددهم فى الشعب أو القبيلة قلة ، وهم بالنسبة لما يسيرون عليه فى حياتهم لا يمثلون القاعدة العامة . ولنعد إلى الكثرة الغالبة والجمهور من الناس . نقول إنه لا توجد لدى الشعوب الأفريقية قواعد تنص على حد أقصى لما يجوز للرجل أن يحوزه من النساء ، وعلى ذلك فمن الناحية النظرية يستطيع الرجل أن يتخذ من الزوجات

ما يشاء ، إلا أن الأمر من الناحية العملية ليس على هذا النحو من السهولة . فهناك طائفة من الاعتبارات تحول دون الرجل والإكثار من عدد زوجاته تبعاً لهواه .

فالزواج الأفريقى يتطلب كقاعدة عامة قيام الراغب فى الزواج بدفع مهر إلى أهل الفتاة أو المرأة التى يرغب فى الزواج منها . ولدى بعض الشعوب يصل مقدار المهر الذى يجرى العرف بدفعه حداً كبيراً يعجز الرجل بمفرده عن توفيره ، ولذلك تقضى التقاليد بضرورة أن يعاونه فى جمعه أقاربه . وفى ظروف كهذه ليس من السهل على الرجل العادى أن يحصل فى يسر على المال الذى يمكنه من اتخاذ زوجات إضافيات . ولذلك فإننا نجد تعدد الزوجات يكاد يكون مقصوراً على الرجال المتقدمين فى السن الذين استطاعوا بمضى الزمن ومساعدة أولادهم تكوين ثروة تسمح لهم باتخاذ زوجة ثانية أو أكثر . فالمهر إذن عقبة فى سبيل تعدد الزوجات لدى عدد غير قليل من الشعوب الأفريقية .

ولرجل لا يستطيع التوصل إلى اتخاذ زوجات متعددات والإبقاء عليهن إلا إذا كان قادراً على أن يوفر وسائل العيش التى يلزم العرف كل زوج بتوفيرها لزوجته . وعلى ذلك فالقدرة على الإنفاق شرط لإمكان الرجل اتخاذ زوجات متعددات ، أو على الأقل شرط لاستمرار بقائهن معه .

ولدى الشعوب التى تمارس زواج البدل أو المقايضة قد

يقضي العرف بضرورة تزويج كل الذكور البالغين قبل أن يسمح لرجل متزوج باتخاذ زوجة ثانية ، ومن شأن هذه القاعدة أن تحول دون ممارسة تعدد الزوجات على نطاق واسع .

وقد يحول شعور الغيرة لدى النساء دونهن والموافقة على أن يكن زوجات إضافيات فى بيت متعدد الزوجات . فقد تمتنع المرأة عن الزواج من رجل له زوجة أو زوجات خوفاً من أن تصبح حياتها معهن سلسلة من التعاسة والشقاء .

وقد تحول خشية الرجل عواقب الغيرة بين الزوجات المتعددات دونه والتفكير فى اتخاذ زوجة ثانية أو ثالثة . فقد يخشى الرجل أن تستحيل حياته معهن إلى متاعب مستمرة ومضايقات لا تنتهى بسبب المشاحنات التى تنشب بين زوجاته المختلفات أو بينه وبينهن نتيجة محاباته لإحداهن . ويدرك الرجال الأفريقيون المتاعب التى تنجم عن اتخاذ زوجات إضافيات . فهم بحكم التجربة يعرفون ما يسببه تعدد الزوجات من إذكاء لروح الغيرة بينهن . ويمكننا أن نستدل على ذلك من الأمثلة السائدة لدى بعض الشعوب .

فلدى الأوى Ewe مثل يقول : « عندما تزوج مرتين اشترى طعاماً ، لكن بزواجه من ثالثة كان عليه أن يدير حجر الطحن بنفسه » .

ولدى التوى Twi يجرى المثل « إذا مرض زوج متعدد الزوجات فلسوف يموت من الجوع »[1].

(١) انظر Westermann ص ١١٨ .

وتحدثنا مونيكاهنتر عن موقف بعض الرجال من تعدد الزوجات لدى البوندو فتقول : « عرفت رجالا كثيرين كانت لهم زرائب ملأى بالماشية ، ومع ذلك عاشوا لكل زوجة واحدة . والسبب الذى كانوا يبدونه لذلك هو أن عدداً كبيراً من النساء يسبب الكثير من المتاعب ، فهن يتعاركن على الدوام » .

(ب) مدى حق الزوجة فى الاعتراض عليه :

القاعدة العامة لدى الشعوب الأفريقية فى هذا الخصوص هى أن اتخاذ زوجة أو زوجات أخريات يعتبر حقاً للرجل لا دخل للمرأة فيه . فللزوج مطلق الحرية فى الزواج بأى عدد يريده من النساء ، وليس لزوجته حق الاعتراض على مشيئته ، فتعدد الزوجات لا يتوقف على إرادة الزوجة الأولى . إلا أن عدداً من الشعوب الأفريقية يعترف للزوجة الأولى بحق معين بالنسبة لرغبة الزوج فى اتخاذ زوجة ثانية . وتتفاوت هذه الشعوب فيما بينها من حيث مدى هذا الحق .

فهناك شعوب تتطلب موافقة الزوجة حتى يتمكن الزوج من اتخاذ زوجة أخرى ، ونستطيع أن نضرب مثلا على هذه الشعوب بالأقزام والأشانتى .

فلدى الإيفيه Efé (إحدى قبائل أقزام الكونجو) يخضع زواج الرجل من امرأة ثانية لموافقة زوجته الأولى[1] .

(١) Schebesta, les Pygm ées du Congo-Belge, p. 245.

ولدى الأشانتى يجب على الزوج أن يحصل على موافقة زوجته الأولى إذا رغب فى اتخاذ زوجة ثانية[١].

وهناك شعوب أخرى لا تذهب فى اعترافها بارادة الزوجة إلى هذا الحد وتكتفى بالزام الزوج باستشارتها ومحاولة استرضائها قبل إقدامه على الزواج من أخرى وإن كانت لا تلزمه باتباع رأيها إذا كانت لا توافق على رغبته ، من هذه الشعوب السوكوما والتونجا .

فلدى السوكوما يحاول الزوج الذى يرغب فى اتخاذ زوجة ثانية الحصول على موافقة الزوجة الأولى وإن كان ذلك ليس من الضرورى حتماً ، وتجرى العادة بأن يهدى الزوج إلى زوجته الأولى ماعزاً عند ما يزمع اتخاذ زوجة جديدة[٢]

ويناقش الزوج عادة مسألة الزواج بأخرى مع زوجته الأولى وإذا اعترضت حاول إقناعها . وقد يبعث إلى أخته أو إحدى قريباته الأخريات يطلب إليها معاونته فى اقناعها بمزايا اتخاذ زوجة ثانية .

ولدى التونجا يجب على الزوج قبل أن يتخذ زوجة ثانية استشارة زوجته الأولى فإذا لم يستشرها فإنها تعود إلى أهلها ، وترفض العودة إليه أو لا توافق على العودة إلا بعد أن يذل نفسه فى الاعتذار إليها .

---

(١) Fortes, kinship and marriage among the Ashanti, p. 280.

(٢) Cory, Art. p. 149.

وقد روت لنا Elisabeth Colson عن أحد الأزواج قوله : « وافقت زوجتى أخيراً على أن أتزوج ثانية ، لكنها وافقت بشفتيها فحسب ، فهى فى صميم قلبها لا توافق ، فالنساء لا يوافقن مطلقاً من صميم قلوبهن على تعدد الزوجات[١] ».

والشعوب التى تتطلب موافقة المرأة على زواج الرجل من أخرى لا تجعل من هذه الموافقة شرطاً من شروط صحة الزواج الثانى . فلا يعنى اشتراط موافقة الزوجة الأولى أن الزواج لا يمكن أن يتم بدون هذه الموافقة . فى الواقع للزوج حتى لدى الشعوب التى تتطلب موافقة الزوجة تجاهل هذه الموافقة واتخاذ زوجة ثانية رغم معارضة زوجته الأولى . إلا أن مثل هذا التصرف من جانب الزوج يعتبر فى ذاته خطأ يبرر للزوجة فصم الرابطة الزوجية ، والذى يحدث عادة فى مثل هذه الحالة هو أن تعود الزوجة إلى أهلها وتصر على عدم الرجوع إلى زوجها ، فلا يكون هناك مفر من فصم الزواج . إلا أن المرأة حتى فى مثل هذه الحالة توازن بين مساوئ البقاء مع الزوج بعد زواجه من أخرى ، ومساوئ انحلال زواجهما ، وهى تتصرف على النحو الذى تحدده لها مصلحتها . ويمكن أن نعمم هذه الملاحظة بالنسبة لغير هذه الشعوب ، فالمرأة التى يغيظها ويؤلمها اتخاذ زوجها زوجة ثانية تحدث المتاعب لزوجها فيضطر إلى ضربها والقسوة عليها وقد يصل توتر العلاقات بينهما حداً يجعل انفصام الرابطة

(٢) فى مؤلفها المشار إليه ص ١٢٤ .

الزوجية أمراً لا مفر منه . فالمرأة لدى هذه الشعوب أيضاً تقارن بين مساوئ الوضع الذى تعيش فيه مع زوجات أخريات ومساوئ انحلال الرابطة الزوجية . وإذا رأت أن مصلحتها فى الاستمرار فى وضعها كزوجة فإن الأمر ينتهى بها إلى التفاهم مع زميلتها وتعتاد مع الزمن الحياة معها . أما إذا رأت مصلحتها فى إنهاء الرابطة الزوجية فهى تتوصل إلى ذلك عن طريق إحداث المضايقات ، وخلق المتاعب لزوجها فتسوء العلاقات بينهما ، وينتهى الأمر بأن يطلقها زوجها أو بأن يتدخل أهلها فيردون إليه المهر الذى دفعه من أجلها ، وبذلك ينحل زواجهما .

فالطلاق إذن سلاح فى يد الزوجة الأولى تستطيع الالتجاء إليه لكى تنهى علاقتها بزوج لم يحترم إرادتها ، واتخذ زوجة ثانية رغم معارضتها .

(حـ) علاقة الزوجات فيما بينهن وعلاقتهن بالزوج :

القاعدة الأساسية فى علاقة الزوجات بعضهن بالبعض الآخر هى استقلال بيوت الزوجات فى الأسرة المتعددة الزوجات ، فلكل زوجة بيتها الخاص الذى يتكون من كوخها الذى تقيم فيه مع أولادها ، والذى تضع فيه أدواتها المنزلية والأدوات التى تستعملها فى الزراعة ، كما يضم الصوامع التى تحتوى على منتجات الحقول التى قامت بزراعتها . فكل زوجة إذن تحيا مستقلة فى شئونها المنزلية ، وفى زراعتها عن الزوجات الأخريات . ويلتزم الزوج بأن يخصص

لكل من زوجاته ماشية لاستعمالها وأولادها، كما يلتزم بأن يضع تحت تصرف كل منهن قطعة أرض تزرعها لتنتج الحبوب التى تعيش عليها أسرتها ، التى تتكون منها وأولادها . كما يلتزم الزوج بأن يوفر لكل من زوجاته الملابس والحاجيات الأخرى التى يتطلب العرف من كل زوج توفيرها لزوجته . وللأموال المخصصة لكل بيت ذاتية مستقلة ، ويرتبط مصيرها بمصير هذا البيت . فتظل هذه الأموال أثناء حياة الزوج مخصصة للغرض الذى جعلت من أجله ، فلا يجوز للزوج أن يأخذ بعض الأموال التى خصصها لزوجته لكى يتزوج منها أو لكى يعطيها لزوجة جديدة ، كما لا يجوز له أن يأخذ من الحبوب التى أنتجتها إحدى الزوجات قدراً يعطيه لزوجة أخرى . وعند وفاة الزوج تؤول الأموال إلى أولاد المرأة التى خصصت هـــذه الأموال لبيتها ، فلا يزاحمهم فيها أولاد الزوجات الأخريات .

فلدى الجلا Galla مثلا لكل زوجة ، فى البيت المتعدد الزوجات ، أسرة مستقلة تكون هى رئيستها الحقيقية . وللزوجات المتعددات مساكن منفصلة يقمن بها مع أولادهن وخدمهن ولهن ماشيتهن ، وحقولهن . وتعد كل منهن الطعام للزوج تبعاً لدورها وتبعاً لاستدعائها لقضاء الوقت معه .

ولدى الأكمبا لكل زوجة كوخها الخاص وهى تعد طعامها الخاص بها ولها أبقارها التى تحلبها وحقولها التى تزرعها .

ولدى الكجاتلا Kgatla لكل بيت أمواله الخاصة التى تتكون

من عدد من الأكواخ وحقول وأدوات منزلية وماشية . ويجب على الرجل إذا تزوج ثانية أن يمد زوجته الجديدة بحقولها وماشيتها الخاصة . فالأموال التى خصصها لزوجته الأولى تكون ميراثاً لأولادها .

ولدى الجوسى Gusii لكل زوجة بيتها المستقل ، ويضم كل بيت أمواله الخاصة من الماشية والماعز والحيوانات الأخرى . وللزوجة أن تعترض لصالح بيتها على المحاولات التى قد يقوم بها الزوج لإقراض بعض أموال بيتها لبيت آخر .

ولدى النياكيوسا Nyakyusa لكل زوجة فى البيت المتعدد الزوجات كوخ منفصل أو غرفة مستقلة فى كوخ طويل مقسم إلى أجزاء . به يوجد الكانون (الموقد) الذى تستخدمه فى طهو الطعام . وتحضر كل زوجة بنفسها ما تحتاج إليه من وقود أو ماء أو ترسل فى إحضاره ابنة غير متزوجة . وعند تناول الطعام تأكل كل أم مع بناتها وأبنائها الصغار . وتعد كل أم الطعام لأبنائها فوق العاشرة أو الحادية عشرة الذين يتناولون طعامهم عادة مع أصدقاء من سنهم ، حيث تزور كل جماعة سن أم كل من أعضائها بصورة دورية . ويأكل الزوج بمفرده أو فى صحبة جيران له من نفس سنه ، وتبعث كل زوجة إليه بصحفة أو تعد كل منهن الوجبة بأكملها حسب دورها .

والقاعدة العامة أن الزوج يجب عليه أن يراعى المساواة فى معاملة زوجاته المتعددات سواء فيما يتعلق بالأموال التى

يخصصها لهن أو الهدايا التى يقدمها إليهن ، أم بالنسبة للأيام التى يقضيها فى كوخ كل منهن . وعدم مراعاة الزوج لهذه المساواة تثير شعور الغيرة لدى الزوجة أو الزوجات اللاتى يقاسين من تحيزه .

يقول Cory بالنسبة لنساء السوكوما إنالزوجات فى البيت الواحد لا يستشعرن الغيرة فيما بينهن ، على العكس من ذلك شعور الحسد على جانب كبير من الحدة بينهن ، فهن يرين من الطبيعى أن يوزع الزوج عواطفه بين عدة زوجات ، لكن أن تحصل إحداهن على قدر من عقود الخرز أو الأساور المعدنية أكبر مما تحصل عليه الأخريات ، فذلك فوق ما يحتمل[١]» .

وعلى الزوج التزام صارم بزيارة زوجاته فى فترات متساوية ومنتظمة .

فلدى السوكوما قد يوزع الرجل وقته بحيث يقضى يوماً مع كل من زوجاته أو قد يزور كلا منهن مرة كل ثلاثة أو أربعة أو خمسة أيام[٢] .

ولدى الباهيا يقيم الرجل مع كل من زوجاته أربعة أيام متتالية ، وإذا تجاوز اهتمامه باحداهن هذه الفترة فإن زوجاته

---

(١) فى مؤلفه المشار إليه ص ٥٣ .

(٢) Cory فى مؤلفه المشار إليه .

الأخريات يتهمنه علانية بأنه قد ارتكب مخالفة خطيرة لقواعد اللياقة الزوجية .

ولدى الكافر قاعدة عرفية قديمة تقضى بأن يخصص الزوج المتعدد الزوجات لكل منهن ثلاثة أيام متتالية بلياليها[١] .

ولدى التونجا لكل من الزوجات حق فى صحبة الزوج عدداً متساوياً من الليالى . ويعنى ذلك الليل بأكمله . فإذا أتى إليها للمعاشرة فقط ثم تركها ليقضى بقية الليل فى بيت زوجة أخرى اعتبر أنه يعاملها كما لو كانت عشيقة ، ويكون من حقها الطلاق[٢] .

---

(١) انظر بالنسبة للباهيما والكافر Westermarck ص ٤١ والمراجع المشار إليها فى الهامش .

(٢) نورد فيما يلى بياناً طريفاً ومعبراً بلسان أحد رجال الإيلا ، فى روديسيا الشمالية ، عن واجبات الزوج المتعدد الزوجات :

« عند ما يتزوجون هكذا يبنى الرجل بيتين أحدهما بجوار الآخر ، أو أحدهما فى حوش آخر خوفاً من أن تتشاحنا إذا كانتا جنباً لجنب . ثم فيما يتعلق بواجبات هذا الرجل نحو الزوجتين ، إذا جمع خشباً للوقود من أجل الزوجة الرئيسية ، فيجب أن يكون بكمية أكبر منها من أجل الزوجة الأدنى . وإذا كسا إحداهما جلد ماعز وجب عليه أن يكسو الأخرى جلد ماعز أيضاً . وإذا راح يجلب ماء ، فعليه أن يحمل قرعتين ، وإذا كانت إحداهما ملأى فعليه أن يملأ الأخرى إلى الحافة حتى لا تتشاحن زوجتاه ، لأنه إذا لم يفعل هكذا فى الغالب تكون هناك مشاحنة ، تقول إحداهما : « أنا غير محبوبة » وتتشاحنان ، ونفس الشىء بالنسبة للطعام . إذا صنعت إحداهما خبزاً وأكله حتى أتى عليه ، فكذلك

ولدى الأشانتى يجب على الرجل متعدد الزوجات أن يوزع وقته وعلاقاته الجنسية والمؤونة بين زوجاته على قدم المساواة وأن يكون حريصاً فى مراعاة العدل بينهن .

القاعدة إذن هى المساواة بين الزوجات فى الحقوق والواجبات إلا أن هذه القاعدة يرد عليها استثناء هام يتعلق بنظام الزوجة الرئيسية ، فمن السمات البارزة لتعدد الزوجات لدى الأفريقيين وجود زوجة ينظر إليها بوصفها الزوجة الرئيسية فى الأسرة وتنعت

يجب عليه أن يذهب إلى البيت الآخر وأن يأكله و يأتى عليه . وإذا لم يفعل فإن هاتين المرأتين تتشاحنان ، إحداهما تقول « فيما يتعلق بى ، خبزى لم يكله ، بينما أكل خبزك ، »و إذا بات أربع ليال فى بيت فعليه أن يبيت أربعا أخرى فى البيت الآخر ، وإذا كانت الحراب فى بيت عددها أربع فيجب أن يكون عددها أربعا كذلك فى البيت الآخر ، والفؤوس نفس الشىء . فى أحد البيتين فأس ، وفى البيت الآخر فأس . والبطاطين والمقاعد نفس الشىء . . . ومن يتصرف على هذا النحو هو الذى يقدر على تعدد الزوجات ، وسيظل زوجاً لها دائماً ، بينما إذا لم يتصرف على هذا النحو ، فلن يستطيع معالجة تعدد الزوجات . فإن إحداهما تهرب وتذهب إلى بيت أهلها ، وهناك فى بيت أهلها قد يرفضون عودتها قائلين : « ليس لدينا أولاد لمعاملتهم بصورة متقلبة ، ولجعلهم بمثابة خدم ، هى أيضاً أبنة تماماً كالأخرى التى تزوجتها » ، ومن ثم فإنهم يحتفظون بها ، وإذا احتفظوا بها هكذا فإنه يسترد الشيكو chico « المهر » .

فى Smith and Dale, The Ila-speaking Peoples, p. 66.

بالزوجة الكبيرة أو العظيمة[١] . ونظام الزوجة الرئيسية نجده شائعاً لدى الشعوب الأفريقية حتى ما كان منها يعتمد على الجمع والقنص كالبوشمن مثلا ، وتحتل الزوجة الرئيسية فى الأسرة مكاناً ممتازاً بالنسبة لغيرها من الزوجات ، ويرتبط بصفتها هذه عدد من الحقوق والامتيازات . إلا أن مدى هذه الحقوق والامتيازات ليس واحداً لدى الشعوب المختلفة ، فبعضها يعترف لها بامتيازات تبلغ قدراً عظيماً من الأهمية ، بينما يضيق البعض الآخر من هذه الامتيازات إلى حد كبير .

وقد تتعلق الامتيازات التى يعترف بها للزوجة الرئيسية بصلتها بزوجها ، وقد تنصب على علاقتها بالزوجات الأخريات .

فبالنسبة لصلتها بزوجها يعترف للزوجة الرئيسية عادة بالحق فى أن تكون موضع ثقة الزوج ومستشارته ، وفى الحصول على قدر من الأموال والهدايا يفوق ما تحصل عليه الأخريات ، ويعترف لها بقدر من الامتيازات ذات الطابع التشريفى . كما أن ابنها البكر يعتبر الابن الأكبر فى الأسرة ، حتى ولو كان من حيث السن أصغر من أبناء الزوجات الأخريات ، وترتبط بصفة الابن الأكبر امتيازات مالية وأدبية فى علاقته ببقية إخوته ، فالابن الأكبر ينوب عن أبيه فى رياسة الأسرة عند غيبته ويخلفه

---

(١) الغالب فى الزوجة الرئيسية أن تكون هى الزوجة الأولى فى ترتيب الزواج . إلا أن قلة من الشعوب الأفريقية تعتبر أن الزوجة الرئيسية هى الزوجة التى تنتمى إلى طبقة اجتماعية أعلى بصرف النظر عن أولوية الزواج .

فيها حال وفاته ، كما يحصل على النصيب الأكبر فى تركته .

وفيما يلى أمثلة على مركز الزوجة الرئيسية لدى الشعوب الأفريقية :

لدى الهوتنتوت يعتبر كوخ الزوجة الرئيسية الكوخ الرئيسى للأسرة ، يترجل الأصدقاء الزائرون أمامه ، وبه يستقبل الزوج ضيوفه ، وأولاد الزوجة الرئيسية يلبسون أحسن الثياب ، ويفضلون على أولاد الزوجات الأخريات ، ويحصلون على نصيب أكبر فى ميراث الأب (١) .

ولدى الماساى تعامل الزوجة الأولى معاملة أفضل من الزوجات الأخريات ، فالرجل يخصص لاستعمالها جزءاً كبيراً من الماشية ، وتفضل عليهن بالنسبة لهدايا الحلى والثياب ، ولابنها البكر امتيازات بالنسبة للميراث (٢) .

ولدى الكجاتلا يخصص لبيت الزوجة الرئيسية عادة قدر من المال أكبر مما يخصص لبيوت الزوجات الأخريات ، وتحرث حقولها أولا . وابنها البكر يخلف الأب كرئيس للبيت ، ويرث ليس فحسب أموال بيتها الخاص ، وإنما أيضاً الأموال التى لم يسبق تخصيصها لبيت أو شخص معين (٣) .

ولدى التونجا يبنى بيت الزوجة الأولى على يمين كوخ

---

(١) Schapera, The khoisan peoples of South Africa, p. 252.

(٢) Merker, Die Masai, p. 72.

(٣) Schapera; Married life in an African Tribe, p. 105.

الزوج ، بينما تبنى بيوت الزوجات اللاحقات على اليسار ، ويلتزم الزوج بأن ينام فى بيتها قبيل الرحيل فى سفرة أو عند العودة منها مباشرة ، وعندما ينقل بيته إلى موقع جديد عليه أن يجامعها فيه قبل أن يجامع زوجاته الأخريات ، وينبغى أن يكون لرأيها الوزن الأكبر لدى الزوج ، ويلتزم الزوج عند ما يبيع محصوله أو ماشيته باحضار النقود إلى بيتها وإجراء القسمة فيه[١] .

هذا بالنسبة للعلاقة بين الزوجة الرئيسية والزوج ، أما بالنسبة لعلاقتها بغيرها من الزوجات فإننا نجد نفس الخلاف بين الشعوب الأفريقية ، فبعضها يجعل من الزوجة الرئيسية سيدة البيت دون منازع ، ويعترف لها بقدر كبير من السلطة على الزوجات الأخريات ، بينما لدى البعض الآخر لا تكاد الزوجة الرئيسية تتمتع بأى قدر من النفوذ أو السلطة على الزوجات الأخريات بل تقف معهن على قدم المساواة . وتحرص الزوجات الأخريات لدى هذه الشعوب على أن يرين استقلالهن موضع احترام من الزوج والزوجة الأولى .

ولنضرب هنا بعض الأمثلة لكل من هذين النهجين فى تنظيم العلاقات بين الزوجة الرئيسية والزوجات الأخريات .

يحدثنا لندبلوم Lindblom عن الزوجة الرئيسية لدى الأكمبا

---

(١) Colson, Marriage and the family, p. 130.

فيقول ، إن الزوجات الأخريات يناديها بوصفها أما ، ويجب عليهن طاعتها ، كما يطيع الأولاد أمهم ، وهى تشرف على أعمالهن . فرب البيت يخبرها بما يريد عمله ، فتقوم هى بجعل الزوجات الصغيرات يشرعن فى أدائه . ويبدو احترام الأخيرات لها من أنهن لا يناديها باسمها ، وإنما إلى جانب مناداتها بأم يناديها بأسماء أولادها « أم فلان »[١].

ولدى الماساى تباشر الزوجة الرئيسية نفوذاً على الزوجات الأخريات ، وتدفعهن إلى العمل إذا بدا منهن تراخ أو إهمال .

ولدى السكوما طبقاً لما يرويه لنا Cory تحتل الزوجة الأولى مركزاً رئاسيا فى البيت . والزوجات الأخريات يطعنها بل يحببن أداء خدمات صغيرة لها وتنظم الزوجة الأولى العمل داخل البيت لكنها لا تعفى نفسها منه .

ولدىاليوروبا Yoruba الزوجة الأولى هى الزوجة الرئيسية ويلقى على عاتقها إقرار النظام بين النساء ، وتلقب بربة البيت بينما تلقب الأخريات بزوجات التجارة ولعل ذلك راجع إلى أنهن يمارسن البيع فى الأسواق .

ولدى السرير Sérères تعتبر الزوجةالأولىسيدة البيت دون منازع . وهى تتمتع بنفوذ على الزوجات الأخريات ، وتوضع تحت رعايتها ومسئوليتها مخازن الذرة والفصوليا وهى التى توزع

(١) The Akamba, p. 81.

المؤونة اليومية وتعين للزوجات الأخريات عملهن اليومى .

إلا أن شعوباً أخرى، على الرغم من اعترافها للزوجة الأولى بامتيازات معينة فى علاقتها بزوجها ، لا تعترف لها بأية سلطة فى علاقتها بالزوجات الأخريات .

من هذه الشعوب التونجا والنوير والنيا كيوسا . فالزوجة الأولى لدى التونجا ليست المشرفة التى يصدر الزوج عن طريقها تعليماته إلى الزوجات الأخريات ، كما ليس لها بأية حال أن تنسق وجوه نشاطهن، فكل منهن لها الحق فى أن يخبرها زوجها مباشرة بكل أمر يمسها ، ويجب ألا تترك لكى تستقى معلوماتها عن أى عمل يزمع القيام به ، من زوجة أخرى . وقد حدث مرة أن زوجاً أخبر زوجته الرئيسية بأنه قرر نقل بيته ، وأعطاها التعليمات لترتيب أمر الانتقال إلى الموقع الجديد ، ثم ذهب لزيارة بعض أقاربه . وعند ما عاد بعد بضعة أسابيع وجد زوجته الرئيسية منهمكة فى إعداد الموقع الجديد ، بينما ذهبت زوجته الثانية إلى المحكمة لطلب الطلاق . وأثناء سماع الدعوى أيد والدها تصرفها قائلا : « لقد أعطيته ابنتى كزوجة لا كرقيقة ، والآن هو لا يعاملها كزوجة ، فعليها أن تتركه » . وقررت المحكمة أن الزوج قد تخلى عن زوجته إذ أنه لم يطلعها على رغبته فى الانتقال ، وأن انتظار حصولها على التعليمات من الزوجة الأولى هو بمثابة معاملتها كرقيقة[١] » .

---

(١) Colson, Marriage and the family, p. 131.

ولدى النوير ليس للزوجة الأولى مركز خاص ولو أن الزوج بوجه عام يستشيرها أكثر من الزوجات الأخريات لأنه تزوجها قبلهن وبدأ معها بيته وأسرته . وفيما عدا ذلك يصر النوير على ضرورة المساواة بين الزوجات ويعترفون بأن تقاليد البيت تستهدف استئصال الاحتكاك بينهن بقدر الإمكان .

ولدى النياكيوسا تتقدم الزوجة العظيمة على غيرها بالنسبة للشعائر ، والزوجات الأخريات مدينات لها بالاحترام ، لكن ليست لها عليهن سلطة .

وقد نتساءل عن السبب فى وجود هذه الظاهرة : ظاهرة الزوجة الرئيسية لدى الشعوب الأفريقية ؟ . ذهب البعض فى تفسيره لها إلى ترجيح أن تكون أثراً من آثار ممارسة هذه الشعوب لنظام وحدة الزوجة فى تاريخ سالف . بمعنى أن أنصار هذا الرأى يرون أنه من المحتمل أن هذه الشعوب كانت تمارس فى وقت ما من تاريخها وحدة الزوجة ، ثم مارست بعد ذلك تعدد الزوجات . لكن الزوجة الأولى ظلت تتمتع بمركز ممتاز باعتبار أنها الزوجة الحقيقية . فتمتع الزوجة الرئيسية بمركز ممتاز مرجعه إلى بقايا تقاليد خاصة بوحدة الزوجة فى ذاكرة هذه الشعوب . فهى التى ينظر إليها بوصفها الزوجة الجديرة بهذا الاسم ، أما الزوجات الأخريات فهن نساء إضافيات أو جانبيات [1] .

---

(١) انظر فى هذا المعنى وستر مارك فى مؤلفه المشار إليه ص ٢٣ وما بعدها

وقد يجد هذا الرأى بعض السند له في الأفكار السائدة لدى بعض الإفريقيين من أن الزوجة الأولى هى الزوجة الحقيقية .

مثل ما روى عن أحد رؤساء الباسوتو عند ما سئل عن عدد أولاده فلم يحدثهم إلا عن أولاده الذين حصل عليهم من زوجته الأولى ، قائلا لهم إنه الآن أرمل ، وكان يعنى أنه فقد زوجته الحقيقية ، ولم يرفع أيا من الزوجات الأخريات إلى المرتبة الأولى مكانها .

أو مثل الاعتقاد السائد لدى الإوى (داخل التوجو) بأن الزوجة الأولى للرجل كانت أيضاً زوجته الوحيدة فى مرحلة سابقة للوجود[١] .

لكن يبدو أن تمتع الزوجة الأولى بمركز ممتاز يبرره أنها الزوجة التى أدى زواجها بالرجل إلى استقلاله عن أبيه وتمتعه بمركز رب الأسرة ووصوله إلى مرحلة العضو الكامل فى الجماعة أو القبيلة . كما يبرره أنها تكون عادة من اختيار الوالدين ، وأن الزواج بها يستتبع مساهمة من جانب الأقارب ، لا سيما فى إعداد المهر اللازم لها . بخلاف الحال بالنسبة للزوجات الأخريات ، فهؤلاء يعتبرن نوعاً من الترف ، ولا يثير زواجهن نفس الاهتمام الذى يثيره الزواج الأول فضلا عن أن الأقارب لا يساهمون فى المهور اللازمة لهن ، وعلى ذلك فإن الزواج

---

(١) أشار اليها وستر مارك ص ٣٨ ، ٣٩

الأول للرجل يفوق ما قد يعقده فيما بعد من زيجات ، سواء من حيث أهميته بالنسبة للرجل نفسه أم من حيث أهميته بالنسبة للأسرة أو القبيلة ، ومن الطبيعى عندئذ أن ينظر إلى المرأة التى كانت موضوعاً لهذا الزواج بوصفها أكثر أهمية من الزوجات اللاحقات ، فأهمية الزواج الأول تسرى إلى الزوجة الأولى وتكسبها مكانة واحتراماً يفوقان ما يعترف به للزوجات اللاحقات . كما أن مركز الزوجة الأولى يبرره أيضاً أنها عادة تنجب للزوج ابنه البكر ، والابن البكر يتمتع لدى الشعوب الأفريقية بمكانة خاصة ، ومن الطبيعى أن يعترف للمرأة التى أنجبته بشيء من هذه المكانة .

وفضلا عن ذلك ، لعل الاعتراف للزوجة الأولى ببعض الامتيازات كان من باب حسن السياسة ، فهى الزوجة التى تضطر إلى قبول مقاسمة أخريات لها فى عواطف الزوج ، وقد يكون الاعتراف لها بهذه الامتيازات وسيلة إلى ترضية نفسها وجعلها لا تمانع فى زواج رجلها من أخريات ، وفى الحقيقة كثيراً ما ترحب الزوجة الأولى باتخاذ زوجها زوجة ثانية أو زوجات ، فهى بحكم كونها الزوجة الأولى ستتمتع بامتيازات وحقوق ليس فحسب فى علاقتها بالزوج ، بل أيضاً فى علاقتها بالزوجات الأخريات .

ويختلف الباحثون الأوربيون فيما بينهم من حيث الصورة التى ينقلونها إلينا عن العلاقات بين الضرائر . فبينما يقرر البعض

أن هذه العلاقات ذات طابع ودى بوجه عام وأن الحياة فى البيت المتعدد الزوجات تسير سيراً مرضياً ، إذ بالبعض الآخر يؤكد أن هذه العلاقات تتسم بروح العداوة والبغضاء وأن حياة الضرائر تكتنفها المتاعب والمشاحنات وتتخللها الدسائس والمؤامرات .

فلندبلوم مثلا يصف العلاقات بين الضرائر لدى الأكمبا بأنها طيبة بوجه عام . ويعزو ذلك أولا إلى المركز الرفيع الذى تتمتع به الزوجة العظيمة فهى من ناحية لا تتعرض لمنافسة الزوجات الأخريات نظراً لمكانتها الرفيعة فى نفوسهن كما أنها تستطيع استخدام نفوذها للقضاء على المشاحنات التى قد تنشب بين الزوجات الصغريات . ويعزو ذلك ثانياً إلى الاستقلال الذى تتمتع به كل زوجة فى إدارة شئون بيتها .

ويروى كورى أن الرأى السائد لدى السوكوما هو أن إقرار السلام فى بيت متعدد الزوجات ليس أمراً عسيراً . فالزوجات يتنافسن فى العمل وحسن السلوك والزوج هو الذى يجنى ثمار هذا التنافس . وعدم الانسجام بين الضرائر يرجع بصفة عامة إلى غباء الزوج وتحيزه أكثر منه إلى عدم التوافق بين طباعهن .

بينما يقرر جلكمان Gluckman بالنسبة للزولو Zulu واللوزى Lozi أن الغيرة بين زوجات الرجل الواحد بالنسبة للمتعة الجنسية ومظاهر مودته الأخرى تظهر بشكل حاد وتعترف بها الأمثال والأقوال وتبدو واضحة فى الاتهامات المتبادلة بين

الضرائر بممارسة السحر . إلا أن الخوف من الغيرة التى يستتبعها تعدد الزوجات قد دفعت كلا من الزولو واللوزى إلى الوقوف من الجمع بين الأختين موقفاً متعارضاً . فالزولو يقرون زواج الأختين . فكثيراً ما تحث المرأة زوجها على أن يتزوج أختها الأصغر منها التى تصبح بالزواج تابعة لها ، حتى تكون لها « رفيقة ، تقاسمها الأعمال ورعاية أولادها دون غيرة ضرة غريبة» فالحب الذى يربط بين الأختين يتغلب فى نظر الزولو على الغيرة التى تثور بين الضرائر . بينما لدى اللوزى ينظر إلى الزواج من أخت الزوجة ، التى ما زالت على قيد الحياة ، بوصفه أمراً بالغ السوء ، وتقابل الزوجة وأقاربها مثل هذه الرغبة بالاحتجاج الشديد . فاللوزى يقولون إن « غيرة الضرائر تفسد حب الأختين ، وتهدم أسرتهما » ، ومن ثم يجب أن لا توضع الاختان موضع التنافس على مودة رجل ولاأن يوضع أولادهما موضع التنافس على الميراث .

ويقرر فورتس Fortes بالنسبة للاشانتى أن الضرائر يبدين غالباً غيرة عظيمة فى مواجهة إحداهن الأخرى . وتنادى إحداهن الأخرى : كورا Kora ومعناها الغيرى .

وبالنسبة للنياكيوسا تقول مونيكاولسون أن هناك عداوة مرة بين الضرائر ، والاتهام بالسحر شائع بينهن .

وفى رأى مونيكا هنتر ، بالنسبة للبوندو ، أن الكثير يتوقف على الفرد وأنه من المستحيل وضع قاعدة عامة فى هذا الخصوص

لكن كثيراً ما تثور بين الضرائر غيرة شديدة ، حتى ولو بدت العلاقات بينهن ودية فى الظاهر . فالاتهامات بممارسة السحر شائعة بينهن .

خامساً : أثر الإسلام

من المعروف أن العرب فى الجاهلية كانوا يمارسون تعدد الزوجات ، ولم يكن لديهم حد أقصى لما يمكن أن يحوزه الرجل الواحد من النساء . فقد كان من الجائز للرجل أن يتخذ من الزوجات العدد الذى يقدر على دفع المهر من أجله ، والذى يقوى على كفالة أسباب العيش له ، ولا شك أن مدى انتشار تعدد الزوجات يتطلب لكى يكون عاماً أو غالباً أن يكون عدد الإناث ضعف عدد الذكور ، وهو أمر كما رأينا ليس من السهل تحققه فى الظروف العادية ، فنطاق تعدد الزوجات كان لا شك يضيق ويتسع تبعاً للقبائل ، لكنه لم يكن يمثل الحالة الغالبة ، كذلك هناك من الآثار ما يدل على أن من العرب لا سيما الشيوخ والأمراء من كان يجمع فى عصمته عدداً كبيراً من الزوجات .

ولسنا نعرف الشيء الكثير عن علاقة الزوجات المتعددات بالزوج وعلاقتهن فيما بينهن ، لسنا نعرف على الخصوص ما إذا كان العرب فى الجاهلية يمارسون نظام الزوجة الرئيسية ، فليست هناك معلومات واضحة تقطع بوجوده ، ومع ذلك فمن

المحتمل وجوده لديهم للاعتبارين التاليين .

أولا : أن نظام الزوجة الرئيسية يكاد يكون عاماً لدى الشعوب التى تمارس تعدد الزوجات ليس فى أفريقية فحسب بل فى المناطق الأخرى من العالم أيضاً .

ثانياً : أن نظام الزوجة الرئيسية كان معروفاً لدى عدد من الشعوب القديمة التى كانت تمارس تعدد الزوجات ، لا سيما لدى غير العرب من الشعوب السامية مثل الأشوريين واليهود .

وقد أبقى الإسلام على تعدد الزوجات ، لكنه قيد من عدد الزوجات اللاتى يجوز للرجل الجمع بينهن ، كما استلزم معاملة الزوجات على قدم المساواة .

ففى الإسلام لم يعد للرجل أن يجمع فى عصمته أكثر من أربع زوجات ، تطبيقاً للآية الكريمة : « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » . وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لغيلان لما أسلم وتحته عشر نسوة : « أمسك أربعاً وفارق سائرهن» . وفى الإسلام أصبح الرجل مطالباً بمراعاة العدل بين زوجاته ، عملا بالآية الكريمة : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ، ولقول النبى صلى الله عليه وسلم « إذا كانت للرجل امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » . ولما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا أراد السفر أقرع بين زوجاته .

ومن المعروف أن كثيراً من الشعوب الأفريقية اعتنقت الإسلام ، واعتناق الإسلام يقتضيها بالطبع اتباع تعاليمه بالنسبة لتعدد الزوجات . ولذلك فإن اعتناق الرجل الأفريقى الإسلام يقتضيه أولا مراعاة الحد الأقصى لعدد الزوجات ويقتضيه ثانية مراعاة العدل فى معاملة زوجاته . واشتراط العدل بين الزوجات يستتبع اختفاء نظام الزوجة الرئيسية ، فمثل هذا النظام يتعارض مع أحكام الإسلام الصريحة فى وجوب تحقيق العدل والمساواة بين الزوجات ، فالإسلام لا يعرف نظام الزوجة الرئيسية .

فلنستعرض تقاليد عدد من الشعوب الأفريقية ، التى اعتنقت الإسلام ، ولنر بم تقضى بالنسبة لتعدد الزوجات :

يقول دريك بروكمان Drake-Brockman مثلا عن تعدد الزوجات لدى الصوماليين ، إن الصوماليين لا يسمح لهم بالزواج بأكثر من أربع زوجات . لكن إذا ماتت إحداهن أو طلقت فللرجل اتخاذ زوجة أخرى .

ويقول مارتى Marty عن تعدد الزوجات لدى مسلمى ساحل العاج إن المسلمين يطبقون القاعدة القرآنية التى تجيز للرجل أن يتزوج أربع زوجات وأن يتخذ عدداً من السرارى تحدده ثروة الرجل . ويضيف أن الزوجات الحرائر يتخذن من بين كل نساء البلد دون تفرقة فيما يتعلق بالدين ، باستثناء النساء اللاتى ينتمين إلى طبقة اجتماعية دنيا . بينما تتخذ

السرارى من بين النساء دون تفرقة من حيث الحالة الاجتماعية .

ويقول فييار Vieillard أن الرجل من الهوسا Haoussa والبرى برى Bérıberi كان له، قبل اعتناق الإسلام ، أن يتزوج من النساء العدد الذى يقدر على إعالته . ويحدد الإسلام عدد الزوجات بأربع والزوجات الإضافيات يعرفن بالسرارى . وغالبية الرجال ليس للرجل أكثر من زوجتين . ويضيف أن تعدد الزوجات فى زندر Zinder ليست له صفات تختلف عنها فى بقية أفريقية السوداء التى اعتنقت الإسلام . فهناك ، بوجه عام، ربة بيت إيوارجيدا Uwargida ومعناها الزوجة الأولى وهى فى الغالب ابنة عم إذا كان والدا الزوج هما اللذان رتبا أمر الزواج . وفى حوش الأسرة يكون بيتها إلى الشمال وبيت الزوجة الثانية إلى الجنوب . ويلتزم الزوج متعدد الزوجات باقتسام لياليه مع زوجاته على قدم المساواة . وفى العادة يخصص لكل منهن ليلتين متتاليتين .

وبالنسبة للهوسا فى النيجر ليس للرجل من المسلمين أن يتزوج بأكثر من أربع زوجات ، بينما للرجل من الوثنيين أن يتخذ من الزوجات العدد الذى يستطيع إعالته . وتتمتع أقدم الزوجات بمركز خاص فهى تستطيع الإشراف على الزوجات الأخريات إذا أعطاها زوجها هذه السلطة لكن ذلك ليس حقاً لها . وللزوج أن يعهد إليها بادارة أمواله لكنه ليس ملزماً بذلك . كذلك من الممكن تكليفها بتوزيع الذرة والغذاء على الزوجات

الأخريات ، كما أن لها أن تستقبل ضيوف الزوج حال غيبته . ويلزم الزوج بمراعاة العدل بين الزوجات ويعترف للزوجة بالحق فى طلب التطليق إذا كان الزوج يفضل عليها زوجة أخرى .

ولدى التوبو Toubou للرجل أن يتخذ أربع زوجات طبقاً لما يسمح به الشرع الإسلامى . ومن النادر أن تعيش الزوجات المتعددات معا والغالب أن يعشن فى بيوت مستقلة . وتعامل النساء كقاعدة عامة ، على قدم المساواة ، إلا أن تلك التى لها أولاد أكثر تحظى بمعاملة أفضل من حيث إعالتها .

ولدى فولا ودابى Wodaabe يلزم الرجل بمراعاة العدل بين زوجاته المتعددات ومحاباة زوجة على حساب أخرى محاباة ظاهرة يعتبر سبباً كافياً للطلاق من جانب المرأة .

من هذا العرض لتقاليد بعض الشعوب الأفريقية التى اعتنقت الإسلام نستطيع أن نخلص بالملاحظات التالية :

أولا : بالنسبة لعدد الزوجات : نلاحظ أن القاعدة القرآنية التى تنص على أن الرجل لا يجوز له أن يجمع فى عصمته أكثر من أربع زوجات فى وقت واحد لا تجد صعوبة فى قبولها من جانب الأفريقيين . وقد رأينا أن عدد الزوجات لدى الأفريقيين ، فى ظل ظروفهم الأصلية ، نادراً ما يتجاوز فى الواقع الحد الأقصى الذى قرره الإسلام إذا استثنينا الملوك والرؤساء ولا شك أن تعدد الزوجات بالكيفية التى يمارسها هؤلاء

جدير بالزوال والاختفاء . إلا أن هؤلاء الملوك والرؤساء كانوا يتحايلون على الحد الأقصى لعدد الزوجات باتخاذ السرارى . فقد وجدوا فيه باب خلفياً يمكنهم من تحقيق رغبتهم فى حيازة أكبر عدد من النساء(١) .

(١) من ذلك مثلا ما رواه ابن عمر التونسى (فى أوائل القرن التاسع عشر) عن سلاطين وملوك دارفور ودداى ، المسلمين .

فيتحدث ابن عمر عن الخصيان وسبب الحاجة إليهم ومدى الاستعانة بهم لدى ملوك دارفور ، فيقول « فتجعل الناس فى حراسة الحريم لما عندهم من داء الغيرة المتقد المقيم فما رأوا أحسن من حراسة إنسان يكون مقطوع أعضاء التناسل وهو الذى تطمئن إليه النفوس فى العاجل والآجل . وأكثر الناس احتياجاً لذلك الملوك والأمراء لأن كل واحد منهم يجمع ما قدر عليه من النساء بلا مراء ، ولما كانت ملوك السودان أكثر الناس للنساء جمعاً وأبذلهم فى ذلك وسعاً كان عند الملك من الخصيان عدد كثير وهم غفير . فيوجد عند سلطان دار النور نحو الألف أو أكثر » .

تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ٢٢٥ .

ويفسر كثرة التجاء نساء السلاطين والملوك فى دارفور ودداى إلى إنشاء علاقات غرامية مع رجال آخرين فيقول : « فى رأيى أن سبب هذه الحيل هو الحرمان الذى تعيش فيه النساء لدى عظماء السودان : السلاطين والملوك . ذلك أن السلطان فى حريمه أكثر من ألف امرأة دون عد الخادمات والعجائز . وهؤلاء النسوة كلهن على جانب ملحوظ من الجمال و جديرات بالحظوة لدى سيدهن كمشيقات . والملوك وحكام الأقاليم للواحد عدد من النساء يصل إلى خمسمائة سرية وجميعهن شابات و جميلات » .

Vayage an Ouaday, p. 405.

ثانياً : بالنسبة لمراعاة العدل بين الزوجات : نلاحظ

وفى الوقت الحاضر ما زال الرؤساء والأثرياء يتخذون أكثر من أربع زوجات وينبغى أن نفرق هنا بين حالتين نصادفهما جميعاً لدى الشعوب الأفريقية التى اعتنقت الإسلام . فلدى بعض الشعوب يتخذ الرجل أربع زوجات حرائر وما عدا ذلك من النساء يعتبرن بمثابة سرارى أو إماء . والنساء اللاتى يعتبرن كذلك قد يتخذن من بين النساء اللاتى ينتمين إلى طبقة الأرقاء السابقين أو ذريتهم إلا أنهن قد يتخذن أيضاً لدى بعض الشعوب من بين النساء الحرائر . ولدى البعض الآخر من الشعوب لا سيما تلك التى اعتنقت الإسلام حديثاً أو ما زالت معرفتها بتعاليمه ضحلة وسطحية ، قد يتخذ الرجل خمس زوجات كلهن حرائر وكلهن على قدم المساواة .

فى غمبيا Gambia يقال إن من الرؤساء من يجمع فى عصمته أكثر من أربع زوجات وإن خمسة عشر زوجة ينظر إليه فى بعض جهات غمبيا بوصفه متواضعاً إلا أن البعض الآخر يكتفى بأربع زوجات حرائر هن وحدهن اللاتى يعتبرن زوجات شرعيات بالمعنى الدقيق ، لكنهم يضيفون واحدة أو أكثر من السرارى . وهؤلاء النسوة لا يؤخذن بالضرورة من بين النساء اللاتى كن يصحبن إماء لأزواجهن لولا إلغاء الرق وإنما من بين كل النساء اللاتى ينتمين إلى طبقة الأرقاء السابقين واللاتى يزوجهن آباؤهن نظير مهر مناسب وبمقتضى عقد زواج . وكان المفروض فى هذه الحالة احتساب مثل هؤلاء النساء ضمن الحد الأقصى المقرر فى الشرع الإسلامى . حيث إن الرجل يتزوجها بمقتضى عقد زواج عادى . وفى الواقع تعامل هاته النسوة معاملة الزوجات الحرائر تماماً . فكأن هذا الإجراء لا يقصد به سوى التحايل على تحريم اتخاذ أكثر من أربع زوجات . لكن غالبية الناس لا تتجاوز الحد الأقصى سواء لاعتبارات دينية أو اقتصادية .

Anderson, Islamic Law in Africa, p. 237.

أن الشعوب الأفريقية التى اعتنقت الإسلام تفرض تقاليدها على الرجل واجب مراعاة العدل والمساواة بين زوجاته المتعددات .

وفى يندى Yendi (فى غانا) من الشائع أن يطلق الرجل من أثرياء المسلمين وأكثرهم إسلاماً زوجته التى جاوزت سن الحمل بمعنى أنه لا يجامعها . وإن كانت تستمر فى الإقامة داخل حوش زوجها وتتمتع بمركز سام وتظل على علاقة طيبة بزوجها . ومثل هذا الطلاق يستهدف تمكين الزوج من اتخاذ أربع زوجات شابات دون تجاوز الحد الشرعى . إلا أن رجالا آخرين أقل مراعاة لمقتضيات الشريعة من هؤلاء .

المرجع السابق ص ٢٦٠ .

ومن قبيل ذلك ما يلجأ إليه تجار الهوسا أحياناً من اتخاذ زوجة مؤقتة ، فالتاجر إذا كانت لديه أربع زوجات ولا يرغب فى اصطحاب إحداهن فى أسفاره خوف الغيرة أو لكونهن مخدرات ، يلجأ إلى الزواج من خامسة زواجاً مؤقتاً . فيبلغ أحد الفقهاء بأن أياً من زوجاته لا يمكنها السفر معه وبأنه يرغب فى اتخاذ زوجة مؤقتة . ويرتب الأمر بحيث يكون الفقيه فى كوخ المدخل الخاص بحوش التاجر فى الوقت الذى يغادره فيه هذا الأخير ليبدأ رحلته . ويزوجه من خامسة لمدة الرحلة . ويتستر الفقهاء على هذه العادة ويحاولون تبريرها من الناحية الشرعية بقولهم إنه سرح زوجاته لهذه الفترة . ويتم الطلاق بمجرد عودة التاجر عند ما يعطى المرأة المتعة المشروطة لها مقدماً .

Trimingham, Islam in West Africa, p. 169.

وفى قبيلة اليايو فى نياسالاند تثور الشكوى أحياناً من أن رجلا تجاوز عدد الزوجات الأربع الذى يسمح به الشرعى الإسلامى . وقد كان ذلك أحد الأسباب التى من أجلها عزل أحد رؤساء اليايو من منصبه .

Anderson المرجع المشار إليه ص ١٦٧ .

وفى الحقيقة أن هذا الواجب ليس أمراً جديداً على تقاليد الشعوب الأفريقية فقد رأينا أن تقاليد الأفريقيين فى ظل ظروفهم الأصلية تطالب الرجل بمعاملة زوجاته المتعددات على قدم المساواة سواء فيما يتعلق بالمعاشرة الجنسية أم فيما يتعلق بالنفقة والإعالة أم فيما يتعلق بالمعاملة بصفة عامة . بل إن بعض الشعوب الأفريقية المسلمة تجعل من محاباة إحدى الزوجتين على حساب الأخرى سبباً كافياً للطلاق من جانب الزوجة التى تشكو من هذه المحاباة . ولا شك إن اعطاء الزوجة حق الطلاق بسبب إخلال الزوج بالتزامه مراعاة العدل بين زوجاته لهو وسيلة فعالة لضمان قيام الزوج بواجبه فى هذا المجال .

ثالثاً : بالنسبة لنظام الزوجة الرئيسية : نلاحظ أن بعض الشعوب الأفريقية التى اعتنقت الإسلام ما زالت تقاليدها تختص إحدى الزوجات بمركز خاص وهى عادة الزوجة الأولى . ومعنى ذلك أن هذه الشعوب ما زالت لديها رواسب لنظام الزوجة الرئيسية وهو نظام كما رأينا مألوف وذائع لدى الشعوب الأفريقية . .

ومن الواضح أن الإبقاء على هذا النظام يتعارض مع ما يقضى به الإسلام من المساواة بين الزوجات فى الحقوق والامتيازات لكن يخفف من ذلك أن هذا النظام يمارس ، لدى الشعوب الأفريقية التى اعتنقت الإسلام ، فى صورته المخففة حيث يقتصر الأمر على الاعتراف للزوجة الرئيسية ببعض

الامتيازات دون الاعتراف لها بأية سلطة على الزوجات الأخريات ولا شك أن نظام الزوجة الرئيسية سينتهى الأمر به لدى الشعوب المسلمة إلى الاختفاء تحت وطأة مقتضيات الشرع الإسلامى .

ومن الواضح أن اعتناق الشعوب الأفريقية الإسلام لا يكلفها فوق ما تطيق بالنسبة لتعدد الزوجات . وفى الحق أن إباحة تعدد الزوجات لهو أحد الأسباب الهامة التى تفتح الطريق أمامه إلى قلوب الأفريقيين . فتعدد الزوجات كما رأينا نظام تذهب جذوره بعيداً فى أعماق الحياة الأفريقية ، وليس من السهل على الأفريقيين التخلى عنه طالما بقيت الأسباب والظروف التى دعتهم وتدعوهم إلى ممارسته . ومن هنا كان ترحيبهم بالإسلام ، ومن هنا كان انتشاره بينهم هذا الانتشار السريع ، على الرغم من عدم وجود حركة تبشيرية منظمة وراءه .

ثانياً : أثر البعثات التبشيرية المسيحية

من المعروف أن المسيحيين لا يمارسون تعدد الزوجات ، والفكرة السائدة أن تعاليم الديانة المسيحية تحرمه . ومع ذلك فإن فريقاً من الباحثين[1] يرى أن تعاليم المسيحية الأولى لم تكن

---

(١) انظر مثلا Westermarck فى كتابه المشار إليه سابقاً ص ٥٤ وما بعدها . و Gunther فى كتابه : le Mariage : ses formes, son origine ص ١٠٦ وما بعدها .

تتضمن مثل هذا التحريم ويدلل على رأيه بحجج قوية نذكر بعضاً منها فيما يلي :

أولا : أن الإنجيل لا يتضمن نصاً واحداً يحرم تعدد الزوجات ، ومعروف أن السيد المسيح ولد وبشر بتعاليمه فى بيئة يهودية ، واليهود فى ذاك الوقت كانوا يعرفون تعدد الزوجات ويمارسونه ، لا سيما الأغنياء والرؤساء منهم . ويبدو غريباً والحال كذلك أن يقصد السيد المسيح إلى تحريم تعدد الزوجات ولا ينص على هذا التحريم صراحة . وفضلا عن ذلك فإن الأغنياء بصورة خاصة هم الذين كانوا يمارسون تعدد الزوجات ، وقد هاجم السيد المسيح أغنياء اليهود ورؤساءهم ، وندد برذائلهم فلو قصد حقيقة إلى تحريم تعدد الزوجات لما سكت عليه ، بل لهاجمه بوصفه أحد هذه الرذائل .

ثانياً : أن لوثر مؤسس أحد المذاهب الرئيسية فى المسيحية كان ينظر إلى تعدد الزوجات بشىء كثير من التسامح ، فقد قال فيه : « إن الرب لم يحرمه وإبراهيم نفسه الذى كان مسيحياً كاملا كانت له زوجتان ، حقاً أن الرب لم يسمح بمثل هذه الزيجات إلا لبعض الرجال فى التوراة ، وفى ظل ظروف خاصة ، وأن على المسيحى الذى يريد الاقتصاء بهم أن يثبت أن ظروفه مشابهة لهذه الظروف ، إلا أن تعدد الزوجات أفضل يقيناً من الطلاق » .

ثالثاً : أن بعض الفرق المسيحية ناضلت بشدة من أجل

تقرير تعدد الزوجات ومارسته ، من هذه الفرق مثلا الأنابيتيست Anabaptistes فى ألمانيا (فى منتصف القرن السادس عشر) ، حيث كانوا يبشرون بتعدد الزوجات علانية ، ويقولون إن المسيحي الحقيقي يجب أن تكون له زوجات متعددات . ومنها المورمون Mormons فى الولايات المتحدة الأمريكية (فى أوائل القرن التاسع عشر) الذين كانوا يمارسون تعدد الزوجات ، وينظرون إليه باعتباره نظاماً إلهياً ، ومن الطريف أنهم كانوا ينظرون إلى الزوجة الأولى بوصفها الزوجة الحقيقية ، ومن حقها وحدها أن تحمل اسم زوجها ولقبه .

رابعاً : أن بعض ملوك أوروبا وأمرائها فى العصر الوسيط مارسوا تعدد الزوجات ، نذكر منهم شارلمان وفيليب أمير هيس وفردريك جيوم أمير بروسيا فقد كانت لكل منهم زوجتان[١] .

---

(١) يمارس الأعراب المسيحيون من سكان موآب ، على الضفة الشرقية من البحر الميت ، تعدد الزوجات أحياناً . فقد روى الأب جوسان فى كتابه عن هؤلاء الأعراب أن الرغبة فى الحصول على أبناء من القوة بحيث إن المسيحيين أنفسهم يجدون صعوبة فى الاحتفاظ بها داخل الحدود العادلة التى رسمتها آداب الإنجيل فى شهر أغسطس سنة ١٩٠٥ قرر رجل يدعى عيسى من قبيلة الحجازيين ، وهو مسيحي لاتيني من كيراك اتخاذ زوجة ثانية لأن الأولى لا تلد سوى بنات ، ولم يعدل عن مشروعه إلا بعد تعنيف طويل ، وكان يحتج دائماً بأنه يرغب فى الحصول على ابن ويجب أن يحصل عليه . واتخذ آخر زوجة ثانية لأن زوجته الأولى أصيبت بالعمى . ومسيحيون كثيرون آخرون أبرموا رغم العقوبات الروحية ارتباطاً إجرامياً ثانياً لكفالة الدوام لاسمهم ، أى من أجل الحصول على ابن .

ومن رأى هذا الفريق من الباحثين أن تحريم تعدد الزوجات فى أوربا يرجع إلى تأثير التقاليد اليونانية والرومانية ، فقد كان اليونان والرومان يتبعون مبدأ وحدة الزوجة ، وذلك قبل ظهور المسيحية بمئات السنين . ولم يكن الرجل لدى الرومان فى البداية يعاقب إذا اتخذ زوجة ثانية قبل أن يفصم زواجه الأول، وإبرام الرجل زواجاً ثانياً كان يعتبر فى حد ذاته منطوياً على فصم للزواج الأول وذلك حتى عصر الإمبراطورية السفلى ، وفيما بعد عوقب الرجل الذى يتزوج ثانية قبل أن يفضم زواجه الأول ، ومن عجب أن الذى عاقب على الجمع بين امرأتين هو الأمبراطور دقلديانوس الذى اقترن اسمه باضطهاد المسيحيين اضطهاداً شهيراً فى التاريخ .

وينتهى هذا الفريق من الباحثين إلى أن تعدد الزوجات لم يحرم فى المسيحية إلا فى القرون الوسطى ، ومن جانب الكنيسة الكاثوليكية بصفة خاصة[1]. والظاهر أن تحريم تعدد الزوجات

وأحياناً تدفع المرأة نفسها الزوج إلى ذلك . فقد روى أن امرأة مسيحية أرثوذكسية من مادباMàdabà قالت لزوجها يوم وفاة ابنهما الوحيد ، وأثناء مراسيم الجنازة : « اتخذ زوجة شابة لتلد لك أولاداً ، فإنى عجوز » .

انظر les Arabes au Pays de Moab, p. 15, 16.

(١) ويقول وستر مارك :

"Etant donné que la monogamie était la forme normale, et la seule forme léitime du mariage en Gréce et à Rome, on n'a pas le droit

من جانب الكنيسة الكاثوليكية كان متأثراً بالفكرة التى كانت سائدة ، وما زالت من أن الغاية منه هو إفساح المجال أمام الرجل لإرضاء رغبته فى التغيير . ولما كانت الكاثوليكية تنظر إلى الشهوة الجنسية نظرة نفور وتقزز ، وتطالب أتباعها بقمعها ليس خارج الزواج فحسب ، بل بين الزوجين أيضاً ، كان طبيعياً أن ينتهى الأمر بها إلى تحريم تعدد الزوجات .

وقد أدت التقاليد اليونانية والرومانية الموروثة الخاصة بوحدة الزوجة بالإضافة إلى مساندة المسيحية لها إلى انتشار روح الكراهية والنفور بين الأوروبيين بالنسبة لتعدد الزوجات .

---

de dire que c'est le christianisme qui imposa la monogamie au monde civilisé occidental. Sans doute, bien que le Nouveau Testament regarde la monogamie comme la forme normale et idéale du mariage, le christianisme n'interdit pas explicitement la polygynie, sauf dans le cas des evêques et des doyens''.

جـ ٥ ، ص ٥٤ من كتابه المشار إليه .

ويقول جنتر :

"L'interprétation des paroles de Jésus comme prescrivant la monogamie n'est pas convaincante; ces paroles ne permettent pas une couclusion ferme, comme celle que les théologiens se sont efforcés d'en tirer ... c'est seulement l'Eglise médiévale qui imposa la mono-amie, probablement sous l'influence des traditions indo-européennes''.

ص ١٠٨ ، ١٠٩ من كتابه المشار إليه .

وقد جعل المشرع لدى الدول الأوروبية من الجمع بين زوجتين جريمة عاقب عليها بعقوبات قاسية أحياناً . فقد عاقب المشرع الفرنسى على الجمع بين زوجتين بالأشغال الشاقة المؤقتة ، وقد علق بورتاليس Portalis أحد واضعي المجموعة المدنية الفرنسية على تحريم تعدد الزوجات بقوله : « يبدو أننا باقترابنا من البلاد التى تمارس تعدد الزوجات ، نبتعد عن الأخلاق ذاتها » .

وعندما وفدت البعثات التبشيرية المسيحية إلى البلاد الأفريقية ووجدت أهلها على ما هم عليه من اتباع لنظام تعدد الزوجات جعلت القضاء عليه أحد أهدافها الرئيسية فحرمت على أتباعها اتخاذ أكثر من زوجة . وكانت الفكرة المسيطرة على أذهانهم أن تعدد الزوجات يتملق الغريزة الجنسية للرجل وأنه نظام محط للمرأة ، مهدر لكرامتها . إلا أنها لقيت ، وقد كان ذلك متوقعاً ، مقاومة عنيفة من جانب الأفريقيين ، فالأفريقى الذى يعتنق المسيحية يجد نفسه مضطراً إلى التخلى عن حقه فى اتخاذ زوجة ثانية ، ولذلك فإن موقف الأفريقى الذى يرغب فى اعتناق المسيحية ليس سهلا ، فالديانة الجديدة تلزمه بالتخلى عن كل زوجاته ماعدا واحدة إذا كان متعدد الزوجات ، وتحرمه من حق اتخاذ زوجة ثانية فى المستقبل إذا لم تكن له الآن سوى زوجة واحدة ، بينما ظروف حياته تدعوه إلى عدم التخلى عن هذه الرخصة . وكثيراً ما ضحى الأفريقيون بالديانة الجديدة فى سبيل الاحتفاظ بحقهم فى ممارسة تعدد الزوجات .

يقول Ashton عن الباسوتو :

« لقد هاجمت الكنائس بأجمعها تعدد الزوجات واعتبرته خارجاً على القانون لكن من الملاحظ أن كثيراً من الرؤساء وغيرهم مستعدون لأن يطردوا فى سبيله من الكنيسة »(١).

وتروى السيدة Rsutledge عن أحد أفراد قبيلة الكيكويو قوله :

« يقول لنا المبشرون إن الرجل يجب أن تكون له زوجة واحدة ، إذا كانوا يعلمون مثل هذه السخافة ، يمكنهم أن يعودوا من حيث أتوا(٢) » .

ومعارضة دعوة المبشرين بالاقتصار على زوجة واحدة لا تنحصر فى الرجال ، بل إن النساء أيضاً ، على خلاف ما قد يتبادر إلى الذهن ، يقفن منها موقف النفور والمعارضة .

يقول Kitching أحد المبشرين :

« عند ما يعتنق رجل المسيحية ويواجه مسألة وحدة الزوجة لا يكفى أن يقر عزمه هو عليها ، بل يتعين عليه أيضاً الحصول على موافقة زوجته . هل ستكون مستعدة للتنازل عن معاونة زوجات إضافيات ؟ . ولذلك ففى باتيكو Patico كثيراً ما كنا نجد الرجال راغبين فى المجىء إلى الكنيسة ، وتعلم القراءة والسماح

---

(١) The Basuto, p. 80.

(٢) With a prehistoric people, p. 134.

لأولادهم بالمجيء بين فترات رعي الماعز والبقر . بينما كانت النساء فى معظمهن يعارضن بشدة كل التعاليم التى تقضى بوحدة الزوجة . وكانت حجتهن : هل هناك عدد كاف من الرجال للزواج من كل النساء إذا تزوج كل واحد منهم واحدة فحسب وهل يكون علينا أن نؤدى العمل كله دون أن يساعدنا أحد ؟[١]» .

فالأفريقيون رجالا ونساء يعارضون الدعوة إلى وحدة الزوجة . ومعارضة الرجال لنظام الزوجة الواحدة يبدو طبيعياً ومن السهل تفسيره . لكن أن يلقى هذا النظام معارضة من جانب النساء أيضاً فذلك أمر يثير الدهشة . إلا أننا إذا تعمقنا المسألة قليلا وجدنا أن موقف النساء ينطوى فى الحقيقة على إدراك سليم لحقيقة الأمر بالنسبة لهن . فذكاؤهن العملى وخبرتهن اليومية جعلتهن يدركن أن النتيجة الطبيعية للأخذ بنظام الزوجة الواحدة هى آن يبقى عدد من النساء لا يجد طريقه إلى الزواج وتكوين أسرة . والزواج والأسرة هما هدف المرأة الأفريقية وغاية حياتها. فوحدة الزوجة معناها حرمان عدد غير قليل من النساء من التمتع بمزايا الأمومة والحياة العائلية ، ولا أشق على نفس المرأة من أن يحكم عليها بهذا المصير . فالمرأة الأفريقية تدرك إدراكاً فطرياً أنها ستكون الضحية الأولى لهذه الدعوة الجديدة .

ونتساءل عن الخير الذى يصيب المجتمع الأفريقى من

(١) On the Backwaters of the Nile, p. 150.

التخلى عن نظام تعدد الزوجات والأخذ بنظام الزوجة الواحدة . فطالما أن عدد الإناث يفوق عدد الذكور فإن التخلى عن تعدد الزوجات يؤدى بطريقة حتمية إلى بقاء عدد غير قليل من الإناث دون زواج . وواضح ما فى ذلك من إلحاق الضرر بالنساء اللاتى لا تتاح لهن فرصة الزواج بحرمانهن من الأمومة المشروعة والحياة العائلية . وواضح ما فى ذلك من تحريض على الفساد وانحلال الأخلاق وإغراء للمرأة باحتراف الدعارة . قد تفلح البعثات التبشيرية فى جعل عدد من القبائل الأفريقية يتبنى وحدة الزوجة لكن ما تكسبه عن هذا الطريق تفقده بانحلال الأخلاق الجنسية بصفة عامة . فالبعثات التبشيرية تجد نفسها مضطرة إلى الاختيار بين أمرين : إما فرض وحدة الزوجة مع ما يصحبه من فساد ، وإما الإبقاء على تعدد الزوجات ، مع ما فى ذلك من مخالفة لتعاليم آباء الكنيسة . واختيار البعثات التبشيرية الحل الأول قد يرضيها بوصفها هيئات دينية ، لكنه لا شك بعيد عن أن يستهدف الخير للأفريقيين .

ويكاد يجمع الباحثون على أن النتيجة التى ترتبت على حمل الأفريقيين على التخلى عن تعدد الزوجات هى اتجاه متزايد نحو الانحلال وفساد الأخلاق .

فيحدثنا Schapera عن أثر محاربة البعثات التبشيرية المسيحية لتعدد الزوجات لدى الكجاتلا (إحدى قبائل البتشوانالاند فى جنوب أفريقية) أن عدداً من الأعضاء المحترمين فى الكنيسة

يتخذون عشيقات فى الخفاء على غير علم من المبشرين ويبررون مسلكهم قائلين : هناك هاته النسوة الممتلئات شباباً والصالحات لإنجاب أولاد ، لكن قوانين البيض لا تسمح لنا باتخاذ أكثر من زوجة واحدة . فلماذا تذهب خصوبتهن هباء فى الوقت الذى يمكن فيه استخدامهن لزيادة أفراد القبيلة[١] ؟ .

ونفس المؤلف يقول فى كتاب آخر عن أثر الحضارة الغربية على السكان الأصليين فى جنوب أفريقية أن النتيجة الحتمية لمحاربة تعدد الزوجات هى انتشار الخدان ، فكثير من الشابات اللاتى كان من الممكن قديماً أن يكن الزوجات الصغيرات فى بيت متعدد الزوجات عليهن الآن الانتظار حتى يصبح الشبان قادرين على الزواج ، لكن غيبة كثير من الرجال فى المدن يعنى كقاعدة عامة أن الفتاة يجب أن تنتظر سنوات عديدة ، بعد بلوغها ، قبل أن تتزوج ، « وأنه لضد الطبيعية » على حد قول أحد النقلة « أن يبقين عفيفات كل هذا الوقت ، ومعظمهن يستسلم عاجلا أو آجلا لعروض الرجال . والغالبية العظمى من الرجال ، للرجل زوجة واحدة ، لكن كثيرين يحتفظون بعشيقة أو أكثر كن فى الأيام السالفة يصرن زوجاتهم . أحياناً تكون هؤلاء العشيقات أرامل كن يؤخذن قديماً بواسطة قريب ذكر للزوج وأحياناً نساء أزواجهن غائبون من أجل العمل ، لكن كثيراً ما يؤخذن من فئة الفتيات المتقدمات فى

---

(١) Married life in an African Tribe, p. 205.

السن غير المتزوجات . فهؤلاء يدركن أنهن لن يستطعن جميعاً العثور على أزواج ، ويقنع بعضهن بأن « يستعمل » بواسطة رجال متزوجين . بينما يتجه البعض الآخر ، على الرغم من الاعتراض الشديد من جانب رئيس القبيلة ، إلى الهروب إلى المدن . فهن يفقدن كل أمل فى الزواج ، ويفضلن الحرية التى تكتنف الحياة بعيداً عن رقابة القبيلة على القيود التى تحيط بهن إذا بقين[1] » .

ويتحدث Harris عن نتائج محاربة البعثات التبشيرية المسيحية لتعدد الزوجات فى الكونغو وغرب أفريقية ، فيقول إن الكنيسة تواجهها فى تعدد الزوجات مشكلة تستعصى فى الوقت الحاضر على الحل . فالتقليد جزء لا يتجزأ من الحياة الأفريقية ، بحيث إن اعتناق المسيحية يستتبع بالنسبة لمعتنقها نهاية فجائية لعاداته ، تتجاوز آثارها الفرد نفسه . فاحدى الصعوبات الكبرى تتعلق بالزوجات المنبوذات . فى إحدى الإرساليات فى جنوب نيجيريا إذا اعتنق رجل الديانة المسيحية يطلب منه أن يدعو زوجاته معا ويشرح لهن وضعه ثم يختار واحدة ويتخلى عن الأخريات ، ويستمر فى الإنفاق عليهن . لكن حتى هذا ينطوى على ظلم وتترتب عليه فى كثير من الحالات نتائج مؤسفة . فالنساء اللاتى نبذن على هذا النحو

---

(١) Present day life in the Native-Resserve, in Western civilization and the Natives of South Africa, p. 52.

ينظرن إلى أنفسهن باعتبارهن منبوذات ، حيث فقدن عطف أزواجهن ، وهن لذلك موضع هوان . وقد قيل لى إنه كثيراً ما تصبح هؤلاء النسوة عشيقات بصورة مؤقتة أو دائمة لرجال آخرين ، لا يتوانون عن إهانتهن بأنهن منبوذات من المجتمع . ولا شك أن النسوة اللاتى نبذن على هذا النحو يجدن فى حالات استثنائية أزواجاً بين الأعضاء العزاب فى المجتمع التابع للكنيسة لكن حتى هؤلاء وأباءهم بصورة خاصة ليسوا ميالين دائماً إلى قبول امرأة نبذت بواسطة رجل آخر زوجة لابنهم[١] .

كذلك يبين Westermann الآثار السيئة التى تنتج عن محاربة البعثات التبشيرية لتعدد الزوجات فيقول إنه إذا كانت الكنائس تريد الاحتفاظ بمستوياتها الأخلاقية فهى لن تسمح بتعدد الزوجات . لكن يجب عليها أن تدرك أنها فى سعيها إلى القضاء عليه ، تهاجم وتدمر جانباً أساسياً من المجتمع ، ولذا عليها أن تتجنب فى حرص المتاعب التى لا داعى لها . فإذا تطلب المبشر من الزوج الذى يريد الانضمام إلى الكنيسة طرد كل زوجاته فيما عدا واحدة ، فهو يضطره إلى فصم زيجات شرعية دون مبرر كاف معترف به فى ظل القيم السائدة فى المجتمع . وهو إلى جانب ذلك يهدم وحدة أسرية . والنساء المطلقات يعدن إلى أسرهن وقد يجدن زوجاً أو أزواجاً آخرين ، لكن ماذا عن الأولاد . أياً كان مصيرهم فهم لن يربوا بواسطة أبيهم وأمهم معاً

(١) Dawn in Darkest Africa, p. 60.

ويضيف إلى ذلك قوله إن إدخال نظام وحدة الزوجة يخلق مشكلة اجتماعية فى صورة المرأة التى تظل دون زواج . فبفضل نظام تعدد الزوجات كانت كل امرأة تجد زوجاً وهى حالة لا بد أن تتقيد إذا أصبح نظام وحدة الزوجة عامّاً . . . والمجتمع الإفريقى لا مكان فيه للمرأة غير المتزوجة . فالزوجة المطلقة والأرمل كانت تتزوج من جديد فى أسرع وقت . وقد كانت هناك حالات فردية للنساء رفضن الزواج من الرجال الذين اختيروا لهن وكان هؤلاء يهدين بسهولة إلى الدعارة . ويخشى أن يصبح ذلك أكثر شيوعاً فى ظل الظروف الحديثة[1] .

فسعى البعثات التبشيرية المسيحية إلى فرض وحدة الزوجة يجد مقاومة كبيرة من الأفريقيين ولا شك أنه أحد العوائق الهامة فى سبيل انتشار المسيحية فى أفريقية رغم ما يبذل من أجل ذلك من جهود جبارة وما ينفق من أموال ضخمة . وقد يعتنق الأفريقى المسيحية ومع ذلك يظل مؤمناً بتعدد الزوجات معتقداً فى قرارة نفسه أنه لا يتعارض مع مبادئها . فتحدثنا Monica Hunter عن وحدة الزوجة لدى البوندو (فى أقصى جنوب القارة) قائلة إن البوندو يسلمون بوحدة الزوجة لأنها قانون الكنيسة أكثر منه لأنهم يعتقدون أنها العلاقة الوحيدة التى تتلاءم والمثل الأعلى المسيحى .

---

(١) The African to-day and to-morrow, p. 62.

"Monogamy is accepted rather because it is the law of the church than because it is believed to be the only relation compatible with the Christian ideal".

بل إن معارضة الكنائس الأوروبية لتعدد الزوجات كانت من بين الأسباب التى دفعت الأفريقيين فى جهات متفرقة من القارة إلى الانفصال عن الكنائس الأوروبية ، وتكوين كنائس مستقلة تسمح تعاليمها بممارسة تعدد الزوجات .

وينبغى ألا ننسى أن شعباً من الشعوب الأفريقية التى اعتنقت المسيحية منذ قديم الزمن لا زال رغم اعتناقه المسيحية يمارس تعدد الزوجات ، وأعنى بهذا الشعب « الأحباش » .

فيحدثنا Mérab[1] عن أحد التقاليد الشائعة لدى الأحباش وهو التقليد المعروف بقوبات Kaubât فيقول: إن الرجل من الأحباش إذا لم تلد زوجته بعد مضى بضع سنين على الزواج أو لم تعد تلد بعد وفاة كل أولئك الذين أنجبتهم ، يعتقد أن من حقه البحث عن امرأة شابة ثبتت خصوبتها ، فيأخذها إلى

---

(١) فى Impressions d'Ethiopie. l'Abyssinie sous Ménélik II. t. IIè.

وقد كان Mérab طبيباً فرنسياً ، اشتغل مدة من الزمن طبيباً خاصاً للنجاشى منليك الثانى ، وهو كاثوليكى متعصب ، يفيض كتابه المشار إليه بمظاهر الحقد والعداوة للإسلام والمسلمين ، فهو لا يذكر الإسلام إلا ليهاجمه ، ولا يتحدث عن المسلمين إلا بكل سوء .

بيته ويطعمها ، وينفق عليها فى سخاء ، ويكلف خصياً بحراستها ، ويحصل منها على ورثة شرعيين فى نظر الناس والقانون . و يضيف مراب Mérab أن هذا التقليد لا يمارس إلا لدى كبار البورجوازيين و بصفة عامة أولئك الذين لديهم ثروة ضخمة لا يرغبون فى تركها لأقارب بعداء .

ويقول مراب أيضاً : إن الزوج عندما يقوم بحملة حربية أو سفرة طويلة إذا لم تستطع زوجته مصاحبته فإنها تقوم بنفسها بالبحث عن طباخة تختارها جميلة فى غير إسراف تعرف إخلاصها ، ولا تخشى أن تختلعها من قلب زوجها مستقبلا . وتلزم موافقة الزوج على هذا الاختيار . والطفل الذى يولد من علاقة الزوج بهذه المرأة يبقى فى البيت ويربى وفقاً للمسيحية ، وله حق حمل اسم أبيه ووراثة تركته . فهو لا يعتبر بمثابة ابن طبيعى وإنما يعترف بنسبه ، بل إن الزوجة الشرعية تعزه كما تعز ابنها ، لا سيما إذا كانت عاقراً .

وفى مكان آخر من كتابه يتحدث مراب عن وحدة الزوجة وتعدد الزوجات لدى الأحباش فيقول : إن الأحباش من الناحية النظرية يتبعون وحدة الزوجة ، لكنهم فى العمل وبصورة غير مشروعة يمارسون تعدد الزوجات ، وإن كان ذلك نادراً . ويدلل على ممارسة تعدد الزوجات بعدم وجود فارق بين الأولاد الذين ولدوا من الزوجة الشرعية أو أولئك الذين نتجوا من علاقات عرضية أو أولاد النساء اللاتى يحتفظ بهن فى البيت .

ويحاول مراب أن يجد العذر للأحباش فى ممارسة تعدد الزوجات فيقول : إنه لا ينبغى التشدد فى مؤاخذة الأحباش عن تعدد الزوجات ، وهم شعب نصف مسيحى ، يعتقد فى إصرار أنه ينحدر من إسرائيل[١] .

سابعاً : موقف السلطات الاستعمارية من تعدد الزوجات

كانت الدول الاستعمارية فى أفريقية تنظر إلى تعدد الزوجات باعتباره نظاماً لا يتفق والحياة المتحضرة . وقد عملت هذه الدول على محاربته وسعت إلى القضاء عليه . غير أنها فى سبيلها لتحقيق هذا الهدف لم تظهر جميعها نفس القدر من الحماس والغيرة[٢] . فهى وإن اتفقت فى العمل على محاربته إلا أنها انقسمت فيما بينها إلى فريقين :

فريق أول لم يحاول اتخاذ إجراءات عنيفة لحمل الأفريقيين على التخلى عن تعدد الزوجات ، واكتفى ببعض اجراءات غير مباشرة . ويضم هذا الفريق من الدول الاستعمارية إنجلترا وفرنسا . فهاتان الدولتان على ما يبدو كانتا قد ألفتا تعدد الزوجات ، نظراً لأنهما كانتا تخضعان لسلطتهما عدداً من البلاد الإسلامية التى يمارس فيها تعدد الزوجات وفقاً للديانة

(١) انظر الكتاب المشار إليه صفحات ٤١ ، ٣٣ ، ٦٦ .

(٢) انظر فى موقف السلطات الاستعمارية

Survey of African Marriage, p. 190.

الإسلامية . فلا شك أن احتلال انجلترا للهند وفرنسا لشمال أفريقية قد منحهما بعضاً من سعة الأفق فى النظر إلى تعدد الزوجات وعودهما احترامه . ولذلك فإنهما لم تحاولا اتخاذ إجراءات مشددة للقضاء عليه لدى الشعوب الأفريقية التى خضعت لسلطتها واكتفتا باجراءات غير مباشرة . نذكر من بين هذه الإجراءات : فرض ضريبة إضافية على الرجل متعدد الزوجات . وفرض ضريبة إضافية على الرجل كلما أراد اتخاذ زوجة إضافية لا يمس مشروعية تعدد الزوجات ، لكنه من الناحية العملية كان يؤدى إلى انصراف الناس عنه . فى ظل الظروف الاقتصادية الأصلية لا يستطيع الرجل أن ينتج من المواد الغذائية إلا ما يكفى لسد رمقه وذويه ، وقد كان توفير المبلغ اللازم لدفع الضريبة ولا يزال أهم ما يشغل بال الأفريقى . وإذا كان الأمر كذلك فمن الطبيعى أن ينصرف الرجال عن اتخاذ زوجات إضافيات حتى لا يجدوا أنفسهم مطالبين بدفع ضرائب إضافية يعجزون عن سدادها ، فيعرضون أنفسهم لكثير من المتاعب والمضايقات .

يقول Schapera إن الإدارة بفرضها ضريبة إضافية على متعددى الزوجات ساهمت مساهمة فعالة فى القضاء على تعدد الزوجات[١] .

وتقول Monica Hunter إن الضغط الاقتصادى فى صورة

---

(١) Western civilization and the Natives of South Africa, p. 51

ضريبة العشر شلنات الإضافية عن كل زوجة أخرى وصعوبة توفير حقل خاص لكل زوجة فى بعض الجهات وتعاليم المسيحية ، كلها تعمل ضد تعدد الزوجات(١) .

أما الفريق الثانى من الدول الاستعمارية فقد أبدى حماساً شديداً للقضاء على تعدد الزوجات واتخذ إجراءات عنيفة لتحقيق هدفه ، ويضم هذا الفريق بلجيكا والبرتغال .

فى سنة ١٩٠٨ أصدرت بلجيكا وثيقتها الاستعمارية Charte Coloniale التى طلبت المادة الخامسة بها من الحاكم العام فى الكونغو العمل على تشجيع التخلى عن تعدد الزوجات . وقد لجأ الحكام الاستعماريون فى الكونغو إلى محاربة تعدد الزوجات عن طريق فرض ضرائب إضافية على متعددى الزوجات وتقرير إعفاءات بشروط معينة لمن يكتفون بزوجة واحدة . ثم اتجهت بلجيكا بعد ذلك إلى اتخاذ إجراءات عنيفة لمحاربة تعدد الزوجات . فصدر مرسوم جرد الزيجات التى تعقد بعد نهاية عام ١٩٥٠ ويكون موضوعها زوجة إضافية من صفتها القانونية . ومن ثم فابتداء من هذا التاريخ لا يستطيع الرجل المتزوج عقد زواج جديد ، وكل اتفاق يتم فى هذا المعنى يعتبر باطلا لا أثر له . ولم يقتصر المرسوم المشار إليه على تجريد كل زواج يعقد أثناء قيام زواج سابق من كل صفة قانونية بل تضمن فضلا عن ذلك تقييداً لحرية

---

(١) Reaction to conquest, p. 202.

الرجال متعددى الزوجات وزوجاتهم فى الاقامة . فقد حرم عليهم الإقامة فى جهات معينة : المدن وغيرها من المناطق غير القبلية . ونص على عقوبات توقع على من يخالف أحكام هذا المنع وتتمثل هذه العقوبات فى الغرامة والسجن والطرد .

كذلك فعلت البرتغال فى مستعمراتها ، فقد ألقت على حكام المستعمرات واجب العمل على محاربة تعدد الزوجات ، واتخذت فى أنجولا إجراءات مشابهة لتلك التى اتخذتها بلجيكا فى الكونغو ، فقد أصدرت مرسوماً يحرم تعدد الزوجات مستقبلا بالنسبة للأهالى المقيمين فى المدن وضواحيها .

وتقول المذكرة التفسيرية لهذا المرسوم أنه فى ظل المادة ٢٤٦من الـ Carta Organica للامبراطوريةالبرتغاليةالاستعمارية التى تسمح ببعض التساهل بالنسبة للعادات والتقاليد الأهلية ، سمح لجمهور الأهالى بممارسة تعدد الزوجات الذى يشكل جزءاً من تقاليدهم الموروثة عن الأسلاف ، وأن تطور المجتمع الأهلى وتقدم المدنية قد بلغ فى المدن وضواحيها مرحلة ينبغى معها عدم السماح بتعدد الزوجات بعد ذلك فى هذه الجهات ، وأنه على الرغم من ضرورة الاستمرار فى السماح بتعدد الزوجات فى المناطق الريفية فإن من المتوقع أن يصبح فى الوسع خلال بضع سنين مد التحريم إلى الإقليم كله . ومن الإجراءات التى لجأت إليها البرتغال أيضاً لمحاربة تعدد الزوجات منع متعددى

الزوجات من الاشتغال فى خدمة الحكومة .

فالسلطات الاستعمارية كانت وما زالت تعمل على القضاء على تعدد الزوجات بين الأفريقيين ، وإن تفاوتت فى مدى حماسها واختلفت فى الطرق والأساليب التى توسلت بها لتحقيق هذا الهدف .

ومن الصعب علينا الاعتقاد بأن السلطات الاستعمارية فى سعيها إلى القضاء على تعدد الزوجات كانت تصدر عن رغبة صادقة مخلصة فى تحقيق الخير والسعادة للمجتمع الأفريقى . فقد رأينا منذ لحظة كيف أن تحريم تعدد الزوجات يسبب فى ظل الظروف الحالية للمجتمع الأفريقى من الشر أكثر مما يحقق من الخير . فما هى مصلحة الأفريقيين فى إلغاء تعدد الزوجات إذا كانت نتيجة هذا الإلغاء فساد الأخلاق الجنسية وطوفان من الأولاد غير الشرعيين . وعند ئذ قد تتساءل عن الأسباب التى تكمن وراء سعى السلطات الاستعمارية نحو القضاء على تعدد الزوجات .

فى اعتقادنا أنه من الممكن تفسير مسلك السلطات الاستعمارية فى هذا المجال إذا نحن وضعنا نصب أعيننا الاعتبارات التالية :

أولا : الرغبة فى فرض طريقة الحياة والقيم الأوربية على الأفريقيين . وهذه الرغبة مبعثها اعتقاد الأوربيين بأن تقاليدهم وقيمهم هى وحدها التى تتفق والمدنية ، وأنها وحدها هى التى

يجب أن تبقى وتسود ، وأن ما عداها همجية ووحشية ، ومن ثم ينبغى أن تختفى وتزول .

ثانياً : أن بلجيكا والبرتغال بالذات ، وهما الدولتان اللتان اتخذتا إجراءات مشددة لتحريم تعدد الزوجات ، دولتان يغلب عليهما التعصب الدينى . ويبدو أن اندفاعهما فى هذا الاتجاه كان خاضعاً إلى حد غير قليل لمؤثرات دينية .

ثالثاً : الرغبة فى الحد من نسل الأفريقيين . فزيادة النسل بين الأفريقيين كانت تسبب للدول الاستعمارية مشاكل مستمرة . من هذه المشاكل عدم كفاية الأرض المخصصة للأفريقيين . فقد جرت عادة الدول الاستعمارية على أن تخصص للإفريقيين مناطق معينة يقيمون فيها ويمارسون نشاطهم الزراعى والرعوى بها ولا يسمح لهم بتجاوزها . وتحتفظ بما يتبقى تحت سيطرتها أو سيطرة أفرادها من المستوطنين . وبطبيعة الحال لم تراعى العدالة فى هذا التوزيع . فالقدر الذى كان يخصص للأفريقيين لم يكن يتناسب مطلقاً مع نسبتهم العددية ، وقد أدى مرور الزمن بما يستتبعه من زيادة النسل إلى أن أصبحت المناطق المخصصة للأفريقيين تضيق بمن فيها . وواضح ما يؤدى إليه ذلك من متاعب للسلطات الاستعمارية . فالسلطات الاستعمارية رأت إذن فى الحد من تعدد الزوجات وسيلة للحد من زيادة النسل لتفادى ما يؤدى إليه من مشاكل لا تجد هذه السلطات لديها استعداداً لحلها .

ثامناً : أثر ظروف الحياة الحديثة على تعدد الزوجات

تؤدى ظروف الحياة الحديثة إلى تخلى الأفريقيين شيئاً فشيئاً عن تعدد الزوجات . فالملاحظ أن تعدد الزوجات أصبح فى الوقت الحاضر أقل شيوعاً منه فى الماضى . ويتفاوت تخلى الأفريقيين عن تعدد الزوجات تبعاً لتفاوت تأثرهم بالظروف الحديثة . فكلما كان هـذا التأثر كبيراً كان الاتجاه واضحاً نحو الانصراف عنه . ويمكننا أن نرجع الاتجاه نحو التخلى عن تعدد الزوجات إلى الاعتبارات التالية :

أولا : أن بعض الأسباب التى تدفع الأفريقيين فى ظل ظروفهم التقليدية إلى ممارسته أخذت تفقد من أهميتها فى كنف الظروف الحديثة . من ذلك مثلا غارات الماشية التى كانت تدفع الأفريقيين أحياناً إلى اتخاذ أكثر من زوجة قد أخذت تزول نتيجة تحريم السلطات الحاكمة لها وعقابها عليها . وتقليد وراثة الأرامل لم يعد يتمتع بما كان له من احترام فى نفوس الأفريقيين . والتقليد الذى يقضى بوقف العلاقات الجنسية بين الزوجين بمجرد الحمل وحتى فطام الطفل قد أخذ يفقد من سلطته . كذلك لم يعد لعبادة أرواح الأسلاف ما كان لها من سلطان . وعلى ذلك ففى الجهات وإلى الحد الذى حدث فيه تطور فى حياة الأفريقيين بالنسبة للمسائل المشار إليها ، أخذ الرجال ينصرفون عن تعدد الزوجات .

ثانياً : أن المرأة فقدت من أهميتها الاقتصادية فى بعض الجهات نتيجة ما طرأ من تطور على الزراعة عقب إحلال المحراث محل العزاقة اليدوية فى إعداد التربة . فقديماً عندما كانت العزاقة هى الأداة المستخدمة لهذا الغرض كان العمل الزراعى من نصيب المرأة . لكن عند ما أدخل المحراث الذى تجره الماشية أصبحت عملية إعداد التربة من نصيب الرجال ، وبذلك فقدت المرأة من أهميتها فى هذا المجال . يُروى أن أحد رؤساء الأكسوزا (فى جنوب أفريقية) عندما شاهد محراثاً يعمل لأول مرة فى حياته ، صاح قائلا : « إن هذا الشيء الذى جاء به البيض إلى البلاد يقوم مقام عشر زوجات[1] » .

ثالثاً : ألقت الحياة الحديثة أعباء مالية متزايدة على عاتق الرجال نتيجة ما طرأ من تطور على الملابس والأدوات المنزلية . فقد اتجه الأفريقيون فى كثير من الجهات إلى ارتداء الملابس المصنوعة من مواد تشترى من المتاجر بعد أن كانوا يقومون بصنع ما يحتاجون إليه من المواد الموجودة فى بيئتهم من أوراق النبات أو جلود الحيوان . كذلك أخذت الأدوات والأوعية الأوربية الصنع تعرف طريقها إلى بيوت الأفريقيين وأخذت تحل شيئاً فشيئاً محل الأدوات والأوعية المحلية الصنع . وطبيعى أن كل ذلك يستتبع تضخماً فى النفقات ، وبالتالى زيادة فى الأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتق الرجل نحو زوجته وبيته .

(١) Hunter, Reaction to Conquest, p. 202.

وطبيعي أن يتردد الزوج في مثل هذه الظروف في اتخاذ زوجة ثانية[1] .

رابعاً : في المدن نجد الاتجاه نحو التخلي عن تعدد الزوجات أوضح ما يكون . وذلك لاعتبارات متعددة منها أن الإعباء الاقتصادية الملقاة على عاتق الرجل تزداد في المدينة زيادة واضحة . فالرجل ملزم أولا بأن يجد سكناً لأسرته ، وبأن يوفر لزوجته وأولاده الغذاء والملابس الحديثة ، ولأولاده مصاريف المدارس . ومنها أن الرجل في المدينة يفقد الرغبة في الحصول على عدد كبير من الأولاد تلك الرغبة العزيزة على الأفريقي في ظل ظروف حياته التقليدية ، فالأولاد في المدينة عبء أكثر منه عون ، والنتيجة الطبيعية لذلك أن يفقد الرجل الرغبة في اتخاذ زوجة ثانية تزيده أولاداً . وفي المدينة يجد الرجل المجال واسعاً لإرضاء رغباته الجنسية عن طريق الاتصال

---

(١) يقول Schapera بالنسبة للكجاتلا أن الرغبة في ممارسة تعدد الزوجات أصبحت في الوقت الحاضر ضعيفة ، اللهم إلا عند ما تكون الزوجة عاقراً . فزاياه الاقتصادية لم تعد كبيرة كما كان الحال في الماضي . فتكاليف إعالة زوجات إضافيات ودفع ضريبة إضافية من أجلهن تعتبر عبئاً أكبر من أن يعوضه عملهن في الحقول . والماشية التي كانت في وقت ما تستخدم كبوجادى « مهر » من أجل زوجات جديدات أصبح يحتاج إليها الآن في الحرث والنقل أو للبيع من أجل الحصول على الحاجيات المختلفة ، ثم أن المتعة الجنسية من السهل الحصول عليها من عشيقات لسن في حاجة لأن يعلن بنفس الطريقة التي تعال بها الزوجة . Married life an African Tribe, p. 99

بنساء أخريات دون أن يتعرض من أجل ذلك كقاعدة عامة لأى جزاء[١]. وفى المدينة بدأت المرأة الأفريقية تحت تأثير الثقافة الغربية وتقليد الأوربيين، تنفر من تعدد الزوجات وتنظر إليه بعين الكراهية[٢]، ولم تعد تقبل بسهولة أن تكون زوجة

---

(١) تتحدث Monica Hunter عن تعدد الزوجات فى مدينتى East-London و Grahamstown فى اتحاد جنوب إفريقية فتقول « تعدد الزوجات بين المقيمين بصفة دائمة فى المدينة نادر جداً . فنظراً لأن الأسر أصبحت عبئاً اقتصادياً بدلا من أن تكون عوناً فى ظل الظروف القبلية القديمة ، فإن قلة من الرجال تستطيع عول أكثر من أسرة واحدة . وعدد الأماديكازى « النساء غير المتزوجات : الفتيات والمطلقات والأرامل » فى المدينة كبير ، وكون أنه من النادر المطالبة بتعويض يجعل من الممكن للرجل الحصول على إرضاء جنسى خارج الزواج ، فى Reaction to Conquest, p. 484.

وتقول Laura Longmore عن تعدد الزوجات فى جوهانسبرج Johannesburg نظراً لأن تكاليف المعيشة الخاصة بإعالة بيت وأسرة فى المدينة بالغة الارتفاع فى الوقت الحاضر ، فإن الرجال مضطرون إلى الاحتفاظ ببيت واحد بوصفه بيتهم الرسمى . إلا أنهم لا يزالون يحتفظون بعلاقات غرامية سرية مع كثير من النساء الأخريات اللاتى يحتاجون اليهن ولايعولوهن إعالة كاملة on a full-time basis فى The Dispossessed, p. 80.

(٢) تقول L. Longmore :

Women in town seldom agree to stay together as wives of one man. One woman cannot tolerate the idea of her husband in bed with another woman while she occupies another bed alone ... There have been arisen an independant spirit and home pride in the urban African women. فى كتابها المشار إليه ص ٨٠

ثانية أو أن تشاركها أخرى فى زوجها . ومنهن من تفضل البقاء دون زواج على أن تكون زوجة ثانية ، ومن السهل عليهن الحصول على المتعة الجنسية فى ظل الترخص الجنسى السائد فى المدن . ومن شأن ذلك أن يؤدى إلى زيادة فى عدد الفتيات اللاتى يصرن أمهات ، وفى عدد الأولاد غير الشرعيين .

خلاصة وعبرة

نخلص من العرض السابق بالنتائج التالية :

أولا : أن تعدد الزوجات لدى الشعوب الأفريقية نظام له أسبابه النابعة من صميم ظروفهم الاجتماعية والاقتصادية والدينية وقد رأينا أن الرجل الأفريقى على خلاف ما يشاع عنه فى كتابات كثير من الأوربيين لا سيما القدامى منهم ، نادراً ما يلجأ إلى تعدد الزوجات لمجرد أن يرضى فى نفسه رغبة التغيير والتنقل أو لكونه عارم الشهوة لا تكفيه امرأة واحدة . وقد رأينا أن الظرف الذى مهد لوجود تعدد الزوجات هو تفوق عدد الإناث البالغات ، لأسباب مختلفة ، على عدد الذكور البالغين . وأن تعدد الزوجات يؤدى وظيفة على جانب كبير من الأهمية ، وهى أنه يتيح للعدد الزائد من الإناث فرصة الحصول على أمومة مشروعة والتمتع بحياة عائلية . فالشعوب الأفريقية فى ظل ظروفها الأصلية لا تكاد تعرف طائفة العوانس اللاتى يكون نسبة

لا يستهان بها من سكان الدول التى تأخذ بنظام الزوجة الواحدة .

وتعدد الزوجات كما يمارسه الأفريقيون بعيد عن أن يكون محطاً للمرأة مذلا لها . حقاً أن المرأة فى ظله مضطرة إلى أن تتقاسم عواطف الزوج مع أخريات ، لكن الزواج فى نظر المرأة الأفريقية ليس مجرد زوج ، بل هو أسرة وأولاد . وقد رأينا أن القواعد التى تحكم علاقات الزوجات فيما بينهن تستهدف إبعاد فرص الاحتكاك بينهن عن طريق الزام الزوج بأن يعد لكل زوجة بيتاً مستقلا ، وبأن يخصص لها ولأولادها عدداً من الماشية وقطعة من الأرض . فضلا عن أن الزوج مطالب بان يراعى العدل والمساواة فى معاملة زوجاته . ثم إن المرأة التى تشعر بأنها تشقى بالبقاء مع زوج متعدد الزوجات تستطيع إقناع أهلها بمتاعبها فيرد هؤلاء المهر إلى زوجها وينحل الزواج ، وتسترد المرأة حريتها وتبحث عن زواج آخر يحقق لها ما تصبو إليه من سعادة أو تبقى دون زواج .

ثانياً : أن الشعوب الأفريقية التى تعتنق الإسلام لا تجد صعوبة فى سبيل التوفيق بين تقاليدها القديمة وتعاليمه . فالإسلام يحدد عدد الزوجات اللاتى يجوز للرجل أن يجمع بينهن فى وقت واحد بأربع ، وقد رأينا أن الأفريقيين باستثناء الملوك والرؤساء نادراً ما يتجاوزون هذا العدد . فلئن كان للأفريقى من الناحية النظرية أن يتزوج بأى عدد شاء من النساء ، فمن

الناحية العملية تكتفى الغالبية العظمى من متعددى الزوجات بزوجتين أو ثلاث . والإسلام يتطلب من الزوج أن يعدل بين زوجاته ، وقد رأينا أن تقاليد الأفريقيين صريحة فى اقتضاء العدل والمساواة بين الزوجات .

ثالثاً : أن البعثات التبشيرية المسيحية حاربت منذ البداية تعدد الزوجات ونظرت إليه باعتباره نظاماً لا يتفق ومبادئ الديانة المسيحية . وفرضت على الراغبين فى اعتناق المسيحية من متعددى الزوجات أن يختاروا زوجة منهن ، وأن يتخلوا عن الأخريات . وحرّمت على من يكون متزوجاً من أعضائها أن يتخذ زوجة أخرى . وقد أتيحت لنا الفرصة للوقوف على مدى المقاومة التى لقيتها وتلقاها البعثات التبشيرية فى هذا الخصوص من جانب الأفريقيين رجالا ونساءاً . وقد لاحظ الكثيرون ما يصيب الدعوة إلى المسيحية من بطء شديد من جراء معارضتها لتعدد الزوجات ، بل لقد طالب البعض بأن يبدى المبشرون بعض التساهل فى هذا المجال . وقد رأينا كيف أن محاربة المسيحية لتعدد الزوجات كانت من بين الأسباب التى دفعت المسيحيين الأفريقيين إلى الانفصال عن الكنائس الأوربية وإنشاء كنائس مستقلة تبيح تعاليمها تعدد الزوجات .

رابعاً : أن السلطات الاستعمارية سعت إلى القضاء على تعدد الزوجات وإن تفاوتت فيما بينها من حيث مدى شدة وعنف الأساليب التى لجأت إليها لتحقيق هذا الهدف . وقد

رأينا كيف أن السلطات الاستعمارية كانت مدفوعة فى سعيها هذا برغبة مزعومة نحو تمدين الأفريقيين وتحسين حال المرأة الأفريقية ، أو واقعة تحت ضغط مؤثرات دينية أو مستهدفة تحقيق مآرب سياسية من وراء تحديد نسل الأفريقيين .

خامساً : أن ظروف الحياة الحديثة الناجمة عن الاتصال بالحضارة الأوربية بما تؤدى إليه من اختفاء بعض الأسباب التى تدفع الأفريقيين إلى اتخاذ أكثر من زوجة ، وبما يترتب عليها من زيادة الأعباء الاقتصادية الملقاة على عاتق الرجل وبما يكتنفها من سهولة الحصول على المتعة الجنسية دون زواج وبما تولد عنها من نفور المرأة الأفريقية المتزايد من مشاركة أخرى فى رجل واحد ، تعمل على اختفاء تعدد الزوجات لا سيما فى المدن .

سادساً : أن محاولات القضاء على تعدد الزوجات أدت إلى نتائج خطيرة كان لها أعمق الأثر على كيان الأفريقيين الاجتماعى والأخلاقى باعتراف الأوروبيين أنفسهم[1]. فمحاربة

---

(١) يعلق أشتون Ashton على مهاجمة الأوربيين لتعدد الزوجات لدى الباسوتو بقوله : « هاجم الكثيرون تعدد الزوجات بوصفه يتملق أحط غرائز الرجل ونظروا إليه باعتباره سبب تأخر الباسوتو . ومع ذلك فهناك الكثير يمكن قوله تأييداً له . فهو يرضى رغبات الرجل الجنسية كما يرضى غروره الاجتماعى . ويؤدى وظيفة عظيمة الفائدة بتوفيره زوجاً وبيتاً لكل امرأة . قد يتسبب أحياناً فى مشاحنات ومتاعب عائلية لكننى أشك فى أنه يسبب من الأذى للحياة العائلية

تعدد الزوجات من جانب المبشرين وسلطات الاستعمار أدت إلى بقاء عدد غير قليل من الفتيات دون زواج ، ومما زاد الطين بلة اقتران محاربة الزوجات فى كثير من جهات أفريقية بنشوء المدن والمراكز الصناعية التى استتبعت هجرة الشبان من القرى إلى المدن .

وما هو مصير الفتيات اللاتى تتقدم بهن السن ولا يجدن سبيلهن إلى الزواج ؟ بعضهن وقد فقد كل أمل فى الزواج بنشىء علاقات مع رجال متزوجين والبعض الآخر يهرب إلى المدينة حيث يتمتع بحرية أوسع ، وهناك ينشئن علاقات جنسية دون زواج ، وينتهى الأمر بعدد غير قليل منهن إلى احتراف الدعارة ، تلك الحرفة الغريبة على الأفريقيين فى ظل ظروفهم التقليدية والتى جاءت إليهم فى ركاب الأوربيين . وطبيعى أن يؤدى

ما ينسب إليه عادة ، ومن المؤكد أن ضرره بالنسبة للأسرة أقل من هجرة الرجال إلى المناجم وهو أمر لا يعارضه هؤلاء المنتقدون بنفس الشدة » .

ويقرر ثورنوالد Thurnwald (بالنسبة لشرق أفريقية) أن تعدد الزوجات يستغرق فى الوقت الحاضر الزيادة فى عدد النساء . وأن عدد المسيحيين القليل نسبياً لم يؤثر حتى الآن على الزيادة فى عدد الإناث ولو أن هذه الزيادة بدأت تصبح مشكلة فى المجتمعات المسيحية . ويضيف أن الزيادة الواضحة فى عدد النساء ، أيا كان سببها ، تتطلب الاهتمام فى ضوء اتجاه تعدد الزوجات نحو الزوال . وأنه نظراً لازدياد الإناث على الذكور ، على الأقل فى عدد من الجهات القبلية ، فإن تعدد الزوجات فى حاجة إلى تنظيم حتى لا يعرض الفائض فى الإناث مقومات حياة الأهلين للخطر .

كل ذلك إلى كثرة الأولاد غير الشرعيين وإلى زعزعة الروابط الزوجية نفسها ، وواضح ما ينجم عن ذلك من مفاسد تهدد أخلاق الأفريقيين وكيانهم .

ذلكم إذن هو تعدد الزوجات لدى الشعوب الأفريقية . وقد قلنا فى مقدمة بحثنا إن دراسة تعدد الزوجات لدى هذه الشعوب من شأنها أن تلقى ضوءاً ينير لنا الطريق نحوفهم مشكلة تعدد الزوجات فى مجتمعنا العربى فهما واعياً وأنها قد توحى لنا بالحلول المناسبة لها . وقد آن الأوان لأن نستخلص من هذه الدراسة عبرتها .

فى اعتقادنا أن أول درس نخلص به من استعراضنا لتعدد الزوجات لدى الشعوب الأفريقية هو أن هذا النظام وسيلة فعالة لحماية المجتمع من المفاسد والأضرار التى تنشأ حتماً عن وجود فائض من الإناث لا يجد طريقه إلى الزواج . وقد رأينا أن الشعوب الأفريقية تعرف أسباباً متعددة تستتبع زيادة عدد الإناث بها على عدد الذكور . وقد ذكرنا أن هذه الأسباب تتلخص فى : الحروب ، كثرة تعرض الرجال للموت بحكم طبيعة عملهم ، زيادة نسبة المواليد من الإناث ، وزيادة نسبة الوفيات بين الذكور من الأطفال ، الفارق الواضح فى سن الزواج بين الإناث والذكور . قد يقال إن هذه الأسباب أو بعضها ليس له فى بلادنا نفس الأهمية التى له لدى الشعوب الأفريقية . قد يقال مثلا إن الحروب الحديثة بما يكتنفها من

غارات جوية لا تفرق بين الرجال والنساء ، لكن يبقى أن الرجال بوصفهم الجيش المحارب هم ضحيتها الأولى . فكل حرب تؤدى بالضرورة إلى الانتقاص من عدد الرجال بنسبة تزيد على نسبة النقص فى النساء ومن ثم إلى وجود فائض فى الأناث . وأكبر شاهد على ذلك ما حدث فى بعض البلاد الأوربية عقب الحرب العالمية الأولى والثانية . وقد يقال إن الإناث والذكور يولدون فى أعداد متساوية تقريباً وقد نسلم بذلك لكن يبقى أن نسبة الوفيات بين الأطفال من الذكور أعلى من نسبتها بين الأطفال من الإناث . وهو أمر يستتبع بصورة محتمة زيادة عدد الإناث البالغات الصالحات للزواج على عدد الذكور البالغين . أضف إلى ذلك ما هو مألوف لدينا من وجود فارق واضح فى سن الزواج بين الذكور والإناث حيث يتزوج الرجل عادة فتاة تصغره ببضع سنين . وظاهر ما يؤدى إليه ذلك من زيادة فى عدد الإناث الصالحات للزواج على عدد الذكور الراغبين فيه . ولا يخفى أن هذا الفائض من الإناث لو ترك على حاله لألحق الأذى بالأسرة والمجتمع . وفى اعتقادنا أن تعدد الزوجات وسيلة بين وسائل أخر ، تساعد على امتصاص جزء من هذا الفائض فتقلل من آثاره الضارة .

ولقد شعرت أمم تتبع قاعدة الزوجة الواحدة فى لحظات معينة من تاريخها بالحاجة الماسة إلى إباحة تعدد الزوجات .

فقديماً أباحت أثينا للرجل أن يجمع بين زوجتين وكان ذلك

فى سنة ٣١١ قبل الميلاد عقب الهزيمة الساحقة التى منيت بها الحملة التى بعثت بها للاستيلاء على سيسيليا ، والتى كان من نتيجتها القضاء على معظم شباب أثينا .

وكان الهدف من وراء هذه الإباحة تعويض أثينا عما أصابها من نقص شديد فى عدد الشبان من جراء الهزيمة وحتى لا يبقى معظم الفتيات دون زواج . وإن كانت هذه الإباحة لم تدم طويلا فقد ألغيت فى سنة ٣٠٤ ق. م .

وعند ما أصيبت فرانكونى Franconie إثر حرب الثلاثين عاماً بخسارة فادحة فى الرجال أصدر مجلسها عقب إبرام معاهدة وستفاليا بقليل ، القرار التالى : حيث إن حاجة الإمبراطورية الرومانية المقدسة تقتضى تعويض السكان من الذكور الذين لقوا حتفهم بالسيف أو المرض أو الجوع ، فقد سمح لكل رجل ، خلال عشر السنوات التالية ، بالزواج من امرأتين . على أنه ينبغى التذكير بأن كل مواطن جدير بالاحترام ، يتخذ زوجتين ، يجب عليه ليس فحسب أن ينفق عليهما بصورة مناسبة وإنما عليه أيضاً أن يحول دون قيام أى شعور بالعداوة بينهما » .

وفى فرنسا عقب الحرب العالمية الأولى قام من يدعو إلى إلغاء النص الذى يعاقب على الزواج بأكثر من واحدة ، ويطالب بإباحة تعدد الزوجات ، تخليصاً للمجتمع الفرنسى من النتائج الوبيلة المترتبة على وجود فائض من الإناث بسبب الحرب

وتمكيناً لكل امرأة من الأمومة المشروعة ! »[١].

وتطلع علينا الصحف من وقت إلى آخر تخبرنا بمحاولات تبذل فى ألمانيا لبحث تعدد الزوجات ودراسة إمكانية إباحته بها .

وإذا كانت هذه البلاد (فرنسا وألمانيا ومثيلاتها) لم تتمكن من إباحة تعدد الزوجات فإن من أسباب ذلك الأثر العميق الذى تركه نظام الزوجة الواحدة فى نفوس نسائها. حيث أصبحت الواحدة منهن تفضل أن يكون لها أولاد غير شرعيين من عشيق أو أكثر على أن تحصل على أولاد شرعيين فى ظل نظام لتعدد الزوجات . ولا أظن أحداً يغار على مجتمعنا العربى يرجو له الوصول إلى ما وصلت إليه المجتمعات الغربية فى هذا السبيل .

وإذا كانت فائدة إباحة تعدد الزوجات ظاهرة بالنسبة للمجتمع ككل فإنها لكذلك أيضاً بالنسبة للنساء بصفة عامة . فتعدد الزوجات من شأنه أن يمكن أكبر عدد من النساء من الحصول على أمومة مشروعة وحياة عائلية . وهو أمر لا يتحقق مع وجود فائض فى الإناث وتحريم لتعدد الزوجات .

وإلغاء تعدد الزوجات قد يترتب عليه فى بعض الحالات

---

(١) نقصد بذلك المحاولة التى قام بها صحفى يدعى Georges-Anquetit الذى وضع كتابا بعنوان La maîtresse légitime : Essai sur le mariage palygamique de demain

وقد تبعه فى دعوته آخرون ؛ إلا أن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح .

الفردية ظلم وعنت . ونسوق لذلك مثلا واحداً : حالة الزوجة العاقر . فقد يرغب الزوج فى الحصول على ذرية وقد يرغب فى نفس الوقت فى الإبقاء على زوجته . والزوجة العاقر نفسها قد لا تجد مانعاً فى أن يتخذ زوجها زوجة أخرى . وقد يجد الرجل امرأة تقبل الزواج منه وهى تعلم بزواجه من أخرى . فمن الحمق فى مثل هذه الحالة أن يحال بين الرجل والجمع بين زوجتين .

وينتقد البعض تعدد الزوجات لدينا فى صورته الحالية بوصفه نظاماً لا يقيم كبير وزن لمشاعر النساء . وفى الحقيقة أنه لكذلك . ونحن نعتقد أن قدراً كبيراً من النقد الذى يوجه إليه لن يجد ما يبرره إذا أدخلت عليه تعديلات يمكننا أن نستمد بعضاً منهما من دراستنا لتعدد الزوجات لدى الشعوب الأفريقية .

فقد رأينا مثلا أن بعض الشعوب الأفريقية يتطلب موافقة الزوجة على رغبة زوجها اتخاذ زوجة ثانية . والشعوب الأفريقية وإن كانت لا تنظر إلى موافقة الزوجة الأولى بوصفها شرطاً لازماً لصحة الزواج الثانى إلا أنها على أية حال تجعل من عدم حصول الزوج عليها سبباً كافياً للطلاق من جانب الزوجة . ومن الممكن أن نقر فى تشريعاتنا للزوجة الأولى بمثل هذا الحق فنشترط موافقتها على اتخاذ زوجها زوجة ثانية أو نعطيها الحق فى الطلاق إذا تزوج من أخرى رغم معارضتها .

ونظراً لطبيعة الحياة الأفريقية فى ظل التقاليد القبلية ولما يحاط به الزواج من إشهار ليس من السهل أن تقبل امرأة على الزواج وهى تجهل أن للراغب فى الزواج منها زوجة أخرى . فالأفريقية عند ما تتزوج من رجل له زوجة أو زوجات تفعل ذلك وهى على بينة من أمرها . وحياة المدينة لا تيسر مثل هذه المعرفة . ففيها كثيراً ما يحدث أن تنعقد زيجات ما كانت لتنعقد لو علمت المرأة أو أهلها أن لطالب الزواج امرأة أخرى . ولا شك أن السماح بذلك ينطوى على إهدار لحرية المرأة واعتداء على كرامتها ، إذ هى تجبر على احترام زواج لو علمت الظروف المحيطة به وهى أساسية لما أقدمت عليه . ولا أقل من أن نكفل لنسائنا ما تكفله القبائل الأفريقية لنسائها من حيث تمكين المرأة من الوقوف على حالة الراغب فى الزواج منها وما إذا كانت له زوجة أخرى . وقد نتساءل عن الكيفية التى يمكن بها تحقيق هذا الهدف. فى رأينا أنه من الممكن أن يلزم الرجل حين زواجه بأن يعلن ما إذا كان طرفاً فى رابطة زوجيه أخرى . وأن توقع عقوبة على الرجل الذى يقرر غير الحقيقة وفى الوقت نفسه تخول المرأة التى كانت ضحية كذب الزوج الحق فى الانفصال وقد أحسن المشرع فى الجمهورية العربية المتحدة صنعاً باصداره قانون البطاقة العائلية . فعند ما يعم استعمالها يكون من السهل الوقوف على حالة الرجل من البيانات الواردة بها .

ولدى الشعوب الأفريقية تجرى العادة بأن لايزوج إلا

الرجل القادر على توفير أسباب المعيشة لزوجته . وإذا ظهر منذ البداية أن الرجل أعجز من أن يقوم بذلك رفض أهل الفتاة تزويجها منه . كذلك إذا أصبح الزوج فيما بعد عاجزاً عن القيام بواجباته فى هذا السبيل من حق الزوجة وأهلها فصم الرابطة الزوجية . وفى الواقع لا يقدم على تعدد الزوجات لدى هذه الشعوب سوى الرجال القادرين على تحمل تبعاته ، ومن الممكن أن يشترط القانون لدينا ، حتى يسمح لرجل باتخاذ زوجة ثانية ، قدرته على توفير أسباب المعيشة لزوجتيه .

ولدى الشعوب الأفريقية تكفل التقاليد للزوجات المتعددات حياة مستقلة فلكل كوخها أو أكواخها ولكل حقولها وماشيتها ولكل أدواتها وآنيتها . ومن الممكن فى تنظيمنا لتعدد الزوجات أن نتطلب من الرجل أن يوفر لكل من زوجاته حداً أدنى من الاستقلال يكفل لكل منهن حياة خالية أو تكاد من الاحتكاك بالزوجات الأخريات ذلك الاحتكاك الذى تتولد عنه عادة المتاعب والمضايقات .

كذلك لدى الشعوب الأفريقية يطالب الرجل بمراعاة العدل بين زوجاته . ولهذا الواجب ضمانات تكفل قيام الرجل به . وأهم هذه الضمانات الحق الذى يعترف به ، لدى بعض هذه الشعوب ، للزوجة التى تكون ضحية محاباة زوجها لزوجة أخرى فى طلب الطلاق .

وفى اعتقادنا أن تنظيم تعدد الزوجات على هذا النحو يجعل منه نظاماً صالحاً للبقاء فى مجتمعنا العربى الحديث . فمن شأن هذا التنظيم أن يوفق بين مصلحة المرأة الفردية فى أن تحترم حريتها وأن تصان كرامتها وبين مصلحة المجتمع والنساء بصفة عامة فى امتصاص الفائض من الإناث الأمر الذى يمكن أكبر عدد من النساء من التمتع بأمومة مشروعة وحياة عائلية ويسد فى الوقت نفسه باباً يتسرب منه الفساد إلى المجتمع .

مصادر البحث

ابن عمر التونسى .

(١) تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان باريس ١٨٥٠ .

(٢) عن العربية VOYAGE AU OUADAY, Paris 1850.

ANDERSON, Islamic law in Africa, London 1954.

ASHTON (Hugh), The Basuto. O.U.P. 1952.

CAMPBELL (Dugald), In the heart of Bantuland. London 1922.

COLSON (Elisabeth), Marriage and the family among the Plateau Tonga of Northern Rhodesia, Manchester University Press, 1958.

CORY (Hans), Sukuma law and Custom. O.U.P. 1953.

DOKE (Clement M.), The Lambas of Northern Rhodesia. London 1931.

FORTES (M.), Kinship and marriage among the Ashanti in African systems of kinship and Marriage. O.U.P. 1950.

GUNTHER (Hans F.K.), Le mariage : ses formes, son origine Paris 1950. عن الألمانية .

HARRIS (John H.), Dawn in Darkest Africa. London 1914.

HUNTER (Monica), Reaction to Conquest, Effects of contact with Europeans on the Pondo of South Africa. London 1936.

KITCHING (Rev. A.L.), On the Backwaters of the Nile. London 1912.

LINDBLOM (Gerhard), The Akamba. In British East Africa. Uppsala 1920. الطبعة الثانية :

LONGMORE (Laura), The Dispossessed. A study of the sex-life of Bantu-women in and around Johannesburg 1959.

MERAB, Impressions d'Ethiopie. L'Abyssinie sous Ménélik II. t. II, Paris 1929.

MERKER (M.), Die Masai, Berlin 1904.

ROUTLEDGE (W. Scoresby), With a prehistoric people. The Akikuyu of British East Africa, London 1910.

SCHAPERA I. Maried Life in an African Tribe, London 1939 The khoisan peoples of South Africa : Bushmen and Hottentots London 1951. Western Civlization and the Natives of Soulh Africa. Studies in Culture contact. London 1934.

SCHEBESTA (Paul) les pygmées du Congo Belge. (بعد سنة ١٩٥٠)

SMITH AND DALE, The Ila-Speaking Peoples of Northern Rhodesia.

SURVEY OF AFRICAN MARRIAGE AND FAMILY LIFE,
By Philips, Mair and Hares. London 1953.

TRIMINGHAM, Islam in West Africa Oxford, 1959.

WSTERMANN, The African to-day and to-morrow, O.U.P. 1949.

WESTERMARCK (E), Histoire du mariage t. v. Paris 1943.

عن الإنجليزية :

WILLOUGHBY (W.C.), Race problems in the New Africa. Oxford 1923.

فهرس

تعدد الزوجات

صفحة

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٣